



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

سلسلة أعلام الفكر العالمي

رودا



أحمد محمد عيسى

ترجمة
صالح عيسى

نیرودا

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلوند، ساحة الحريري - ط ١ / ٨٧٩
شرقاً موكيالبي بيروت - ص ب ٨٤٦٠٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٢



سلسلة أعلام الفكر العالي

نيرودا

تأليف:
البيروتوكوستي

ترجمة:
صالح علماي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

إن رويين داريو وبابلو نيرودا هما ، دون شك ، أكثر كاتيين تركا أثراً في الشعر الناطق بالاسبانية في هذا القرن . ولكن الشاعر التشيلي فاق النيكاراغوي فيما يتعلق بانتشار أعماله . ويمكننا التأكيد بأنه - منذ ثرفتيس - لم يحرز شاعر ناطق بالاسبانية شعبية تضاهي شعبية نيرودا . فترجماته تعد بالآلاف - بدءاً من اللغات الأوروبية كلها، وانتهاء بلغات لا يمكن تصورها كالأوزبكية ، والأوردية ، والبنغالية - ، وطبعات كتبه تعد بالآلاف ، وعدد النسخ التي تحمل اسمه على غلافها ، في طول العالم وعرضه ، تعد بعشرات الملايين . وقد تلقى في حياته جميع الجوائز وكل التكريم الذي يصبو إليه كاتب ؛ حتى وصل إلى جائزة نوبل - منحت له عام ١٩٧١ ، وكان مرشحاً لها قبل ذلك بعشرين سنة - وكانت حياته محطاً لجوائز أخرى لا حصر لها ، ولدرجات دكتوراة فخرية من عدة جامعات اميركية

إن روبين داريو وبابلو نيرودا هما ، دون شك ، أكثر كاتبين تركا أثراً في الشعر الناطق بالاسبانية في هذا القرن . ولكن الشاعر التشيلي فاق النيكاراغوي فيما يتعلق بانتشار أعماله . ويمكننا التأكيد بأنه - منذ ثرفتنيس - لم يبرز شاعر ناطق بالاسبانية شعبية تضاهي شعبية نيرودا . فترجماته تعد بالآلاف - بدءاً من اللغات الأوروبية كلها، وانتهاء بلغات لا يمكن تصورها كالأوزبكية ، والأوردية ، والبنغالية - ، وطبعات كتبه تعد بالآلاف ، وعدد النسخ التي تحمل اسمه على غلافها ، في طول العالم وعرضه ، تعد بعشرات الملايين . وقد تلقى في حياته جميع الجوائز وكل التكريم الذي يصبو إليه كاتب ؛ حتى وصل إلى جائزة نوبل - منحت له عام ١٩٧١ ، وكان مرشحاً لها قبل ذلك بعشرين سنة - وكانت حياته محطاً لجوائز أخرى لا حصر لها ، ولدرجات دكتوراة فخرية من عدة جامعات أميركية

واوروبية ، ولأوسمة وتشريفات اكاڤمفة ، وءءوات كضفف رسمف
لعدد من رؤساء الءول ، وءكرفم شعبف وصل إلى ءء انءفاع
الءشوء للء ملاعب رفاضفة رءة من أءل شءصه فءسب .

اضافة إلى العوامل رفر الشعرفة اللف ساهمت فف شعبفة نفروءا
المءهلة ، لفس ءمة شك - لأن بؤس اءءائه فقط هو الءف فناقش امراً
كءذا - بأنه فءب البءء عن السبب الأول والأففر لشعبففة فف طفبفة
شعره ءءماً . وبقف مفمة ءذا الكءاب - بعء مراءة سرففة
لشاعرفة نفروءا ومآثره الشءصفة - مءولة لءللل تلك الطفبفة
العمفة ، والعناصر الاساسفة اللف ءركها الشاعر للوصول إلى ءذه
الطفبفة ، والوصول فف الوقت نفسه إلى ءذا الءمهور العالف الواسع
المءءمس . ومن المناسب فف ءذا الموضع أن نعفء بعض الاعءبارات
اللف ءكرها السفء كارل هاغانار هفرو ، سكرءفر الاكاءمفة السوففة ،
واللف اوافقه علفها وهف ءءءذ نفس المنءى الءف تسفر إلىه نءائءف
ءول « ظاهرة نفروءا » . إء قال بمناسبة منع ءائرة نوبل للشاعر ، فف
اسءوكهولم :

لءء ءصصء ءائرة نوبل ءذا العام لكاءب مءنارء فف ، لكاءب
لفس مءروساً فءسب وإءما هو ما فزال موضع ءراسة ومناقشة .
لكن كون ءذه المناقشة مسءمرة طوال الاربعفن سنة الماضفة ، فؤكد
أن مساهمءة فف ءقل الأءب لفسء موضع ءءال .

وبعء أن فورء آراء غارسفا لوركاء وءوان رامون ءفمفنفء ءول
نفروءا ، تلك الاحكام اللف اصبءت كلاسفكة (إء اعءبره الأول :
الشاعر الأكثر قرباً إلى الءم منه إلى الءفر . بفنفا وسمه ءوان رامون

خيمينيث بأنه : أعظم شاعر سبّىء). يتابع هيرو :

السبب الذي جعل الابتكارات الشعرية النيرودية تلتصق بأسماعنا هو أن شيطان شعره جبار متسلط . لدرجة أن المرء يتساءل ما إذا وجدت ظاهرة كهذه في تاريخ الشعر . ففي الثالثة عشرة من عمره نشر أولى قصائده ، وفي العشرين ، كان قد أصبح شاعراً معروفاً . وفي عام ١٩٦٢ أصبح نتاجه الشعري يربو على ألفي صفحة ، وبعد سنتين من ذلك - عندما أتم الستين - نشر خمسة مجلدات شعرية أخرى بعنوان ذكريات ايسلانغرا . ثم رأت النور كتب عديدة أخرى من تأليفه ، منها اعمال رائعة مثل : اغنية البحارة . امام هذا الموج الشعري المتلاطم ، فإن تقديماً قصيراً لن يفي بالغرض . إن الحديث في هذا العالم الشعري اللامحدود عن قصيدة واحدة أو عن كتاب واحد هو أمر مضحك ؛ أو هو كمن يحاول أن يعيب سفينة تزن خمسين ألف طن بملعقة صغيرة . والقول بأن هذا النتاج الأدبي العملاق يمتاز كله بنفس المستوى ، هو ببساطة قول غير معقول . ومن يرغب بالعثور على الجانب الضعيف في الشعر النيرودي ، فإنه لن يحتاج وقتاً طويلاً في البحث . أما من يريد العثور على الجانب القوي ، فإنه لن يحتاج للبحث أبداً .

إذا ما أضفنا الكتب التي نشرها نيرودا قبيل موته ، والمجموعات الشعرية الثمان التي نشرت بعد موته ، ومذكراته ، ودفاتر النثر السبعة المتنوعة التي ظهرت منذ مدة قريبة تحت عنوان « للولادة ولدت » ، فإن الصفحات الألفين التي ذكرها هيرو ، سيرتفع عددها إلى أكثر من خمسة آلاف ، مشكلة جسداً بيولوجياً يبلغ أكثر من

خمسین عنواناً . ثمة أمر آخر ، أكثر أهمية ، لا بد من اضافته إلى هذه القدرة الخلاقة التي يعتبرها سكرتير جائزة نوبل قوة متسلطة ، ألا وهو تنوعه الذي لا يمكن تصوره ؛ فالمسيرة النيرودية سُبقت بمغامرة شعرية ، تبدلت مراراً وتكراراً وسارت جنباً إلى جنب مع استراتيجية لولبية .

إن موضعاً مشتركاً يقف عليه النقد النيرودي ، يستند على اتهام الشاعر بالرتابة ، وتكرار موضوعه وأشكاله دون توقف . واعتقد بأن حججاً أخرى - كما سنرى في الخاتمة - تستطيع أن تقف في وجه تأليه شاعرية نيرودا ، ولكنها ليست هذه الحجج ، لأن نيرودا لم يسترح يوماً عن مناقشة أشكاله ومضامينه ؛ ومناهج عمله ، والهامه وشاعريته . وأمل أن يثبت هذا الكتاب الصغير ذلك .

عرض تاريخي

١٩٠٤ - يوم ١٢ تموز (يوليو)، يولد في بلدة برال (تشيلي) ريكاردو إيثار نيفتالي ريس باسوألتو، وهذا هو الاسم واللقب الحقيقي لمن سيصبح بابلو نيرودا. أبواه هما: خوسيه دل كارمن ريس موراليس، العامل في سكة الحديد، وروسا باسوألتو، المعلمة في مدرسة الأطفال الثانية في برال. تتوفى والدته بالسل في الشهر التالي لولادة الشاعر، وقبل أن يحتفل العروسان ريس - باسوألتو بالذكرى السنوية الأولى لزفافهما؛ إذ إنهما تزوجا في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٣.

١٩٠٦ - ينتقل دون خوسيه دل كارمن إلى تيموكو، التي كانت في ذلك الحين الطرف الجنوبي الأقصى للحضارة، ويتزوج هناك من ترينيداد كانديا مارفيردي. وفي السنة التالية يأتون بنيرودا - ولم يكن

قد أتم ثلاث سنوات - ليعيش مع العروسين الجديدين .

١٩١٠ - يدخل نيرودا مدرسة الليسيه للذكور في تيموكو ، ويبقى إلى أن ينهي دراسته فيها عام ١٩٢٠ .

١٩١٧ - في ١٨ تموز (يوليو) ، وبعد أيام من الثالثة عشرة من عمره ، ينشر أول عمل له ؛ وهو عبارة عن مقال بعنوان « حماس ومثابرة » ، في جريدة « لامانيانا » الصادرة في البلدة التي يعيش فيها .

١٩١٨ - في العدد رقم ٥٦٦ من مجلة « كورّي - بويلا » ، الصادرة في سنتياغودي تشيلي ، بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ينشر ولأول مرة قصيدة من نتاجه ، بعنوان « عيناى » ، ويوقعها باسم نيفتالي ريبس . وقبل أن ينتهي العام تظهر له ثلاث قصائد أخرى في المجلة نفسها ، وكذلك بعض القصائد الأخرى في مجلات الطلبة الأدبية في تيموكو .

١٩١٩ - ينشر العديد من القصائد في مجلة « كورّي - بويلا » ، وفي مجلة « سيلفا اوسكورا » الصادرة في تيموكو ، ثم في مجلات تصدر في مدينتي تشييان وبالديبيا ، مستخدماً عدداً من الأسماء المستعارة . يشارك في مسابقة مهرجان الزهور في « ماولا » ، وينال الجائزة الثالثة عن قصيدته « ليلى مثالي » .

١٩٢٠ - في تشرين الأول (أكتوبر) يتخذ بشكل نهائي الاسم المستعار بابلو نيرودا لينشر به ، وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) يحصل على الجائزة الأولى في مهرجان الربيع في تيموكو . ويرأس

الجمعية الأدبية في البلدة التي يعيش فيها ، وينجز مجموعتين شعريتين هما : (الجزر الغريبة ، وأتعاب بلا طائل) ولكنه لا ينشرهما ، ومع ذلك فإنه يقسم بعض قصائدهما إلى ديوان « غسقيات » .

١٩٢١ - يسافر نيرودا إلى سنتياغو ، حيث يبدأ الدراسة في المعهد التربوي ليصبح استاذاً للغة الفرنسية . وفي ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) يفوز بالجائزة الأولى في المسابقة الأدبية التي ينظمها اتحاد طلبة تشيلي ، وذلك عن قصيدته « أغنية العيد » التي نشرتها ، فور فوزها ، مجلة « خوييتود » .

١٩٢٢ - يساهم في مجلة « كلاريداد » ويشارك في المناقشات الشعرية التي تنظمها المجموعة الأدبية بريميا . يرد ذكره في العدد الخاص الذي كرسته مجلة لوس تيمبوس ، الصادرة في مونتفيدو ، للشعر التشيلي الشاب .

١٩٢٣ - يظهر الديوان الأول للشاعر « غسقيات » ، في شهر آب (اغسطس) عن دار النشر كلاريداد ، ويشارك نيرودا في مجلة الدار بغزارة على امتداد السنة ، موقعاً مقالاته النقدية بالاسم المستعار « ساشكا » .

١٩٢٤ - تصدر في شهر حزيران (يونيو) الطبعة الأولى من ديوانه « عشرون قصيدة حب واغنية يائسة » ، وهو أوسع اعمال نيرودا شهرة على المستوى العالمي .

١٩٢٥ - يرأس تحرير مجلة « كابايو دي باستوس » ، ويساهم في عدة دوريات . تصدر الطبعة الأولى من « محاولة الانسان

اللائهائي»، ويكتب في الوقت ذاته «المقيم وأمله». يسافر إلى انكود ويزور تيموكو، حيث ما زالت تقيم عائلته. وفي سنتياغو يعيش متنقلاً في فنادق أو متقاسماً غرف السكن مع اصدقائه.

١٩٢٦ - تصدر الطبعة الأولى من «خواتم» و«المقيم وأمله». ثم يصدر النص النهائي من «غسقيات» في طبعة ثانية مهداة إلى خوان غاندولفو. يترجم ريلكه، ويتابع نشر قصائده في المجلات الأدبية.

١٩٢٧ - يعين قنصلاً فخرياً في رانغون (بيرمانيا)، ويسافر إليها يوم ١٤ تموز (يوليو) عن طريق بوينس ايرس. ومن العاصمة الأرجنتينية يستقل السفينة بادن متوجهاً إلى لشبونة. وبعد شهر من ذلك يصل إلى مدريد، ومنها يتوجه إلى باريس ثم مرسليليا قبل أن يتابع رحلته إلى الشرق: إنها المرة الأولى التي يغادر بها تشيلي. يعمل مراسلاً لجريدة «لاناتيون» الصادرة في سنتياغو، والتي تنشر تقاريره بانتظام. يتعرف في بيرمانيا إلى خوسيه بليس، ويعيش معها.

١٩٢٨ - يعين قنصلاً في كولومبو (عاصمة سيريلانكا، والمعروفة في ذلك الحين باسم سيلان). تلحق به خوسيه بليس إلى هناك، ولكن العلاقة بينهما تأخذ بالاضطراب، ثم يفترقان نهائياً بعد وقت قصير.

١٩٢٩ - يحضر مؤتمر انصار الهندوس في كلكتا.

١٩٣٠ - يعين قنصلاً في باتافيا (جاوا). ينشر ثلاثاً من قصائده في مجلة «ريفيسا دي أوكثيديتي» المدرية. وفي السادس من شهر

كانون الأول (ديسمبر) يتزوج من ماريا انطونيتا هاخينار
بوخيلثانت .

١٩٣١ - يعين قنصلاً في سنغافورة .

١٩٣٢ - يرجع إلى تشيلي بعد غياب دام خمس سنوات تقريباً .
وفي شهر تموز (يوليو) تظهر الطبعة الثانية من « عشرون قصيدة
حب واغنية يائسة » في نصها النهائي .

١٩٣٣ - يصدر ديوان « رامي المقلع المتحمس » وكذلك طبعة
جديدة ، في الارجتنتين هذه المرة ، من « عشرون قصيدة . . . » .
ثم طبعة من كتاب « اقامة في الأرض » باخراج فاخر ونسخ محدودة
بلغ عددها مئة نسخة فقط ، وتضم هذه المجموعة قصائد كتبت ما
بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣١ . في ٢٨ آب (أغسطس) يسافر إلى
بوينس ايرس ، حيث عين قنصلاً . وفي شهر تشرين الأول
(اكتوبر) يتعرف في بيت بابلورونخاس باث على فيديريكو غارسيا لوركا .

١٩٣٤ - يسافر في شهر أيار (مايو) إلى برشلونة كقنصل لبلاده .
وفي يوم ٤ تشرين الأول (اكتوبر) تولد في مدريد مالفامارينا ، وهي
ابنته الوحيدة . وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) يقدمه غارسيا
لوركا في جامعة مدريد . ويتعرف في هذه الفترة أيضاً على ديليا دل
كاريل في بيت مورلا ليتتش .

١٩٣٥ - في شهر شباط (فبراير) يتم نقله إلى القنصلية التشيلية
في مدريد ، حيث يمارس في هذه المدينة حياة ادبية نشيطة . وفي شهر
نيسان (ابريل) ينشر الشعراء الاسبان وثيقة بعنوان تحية إلى بابلو

نيرودا ، وفي ايلول (سبتمبر) تظهر الطبعة الواسعة من ديوان « اقامة في الأرض ». ومنذ شهر تشرين الأول (اكتوبر) يصدر العدد الأول من مجلة « الحصان الأخضر للشعر » ، المجلة التي أسسها ورأس تحريرها نيرودا .

١٩٣٦ - تنشب الحرب الأهلية الأسبانية ، ويتم اغتيال فيدريكو غارسيا لوركا . يتخذ نيرودا موقفاً حاسماً إلى جانب الجمهورية ، ويبدأ بكتابة قصائد ديوانه « اسبانيا في القلب » . يقال من منصبه الدبلوماسي . يسافر إلى فلنسيه ثم إلى باريس ، حيث يصدر ويرأس تحرير مجلة « شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني » بمشاركة نانسي كونارد . يفصل عن زوجته ماريا انطونيتا هاخينار .

١٩٣٧ - يؤسس ، هو وثيسر بايخو، في باريس المجموعة الاسبانو- اميركية لمساعدة اسبانيا . وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) يعود إلى تشيلي ، حيث ينشر « اسبانيا في القلب » ويرأس تحالف المثقفين للدفاع عن الثقافة .

١٩٣٨ - تتوالى طبعات « اسبانيا في القلب » ، ويعاد طبع جميع اعماله تقريباً في سنتياغو وبوينس ايرس . يوم ٧ أيار (مايو)، يتوفى والده في تيموكو ، وفي ١٨ آب (اغسطس) تتوفى زوجة والده . تصدر في باريس ترجمة « اسبانيا في القلب » مع مقدمة بقلم لويس اراغون ، ثم تظهر بعد ذلك بقليل الطبعة الاسبانية التي نشرها مانويل التولاغيري في جبهة القتال . يفوز مرشح الجبهة الشعبية بيدرو اغييري ثيردا في انتخابات الرئاسة التشيلية التي جرت في شهر تشرين الأول (اكتوبر). ويجول نيرودا في طول البلاد وعرضها

محاضراً .

١٩٣٩ - تعيينه حكومة الجبهة الشعبية قنصلاً مفوضاً بشؤون المهجرة الاسبانية ، ويكون مقره في باريس . وبعد شهور من الجهود المكثفة يتمكن نيرودا من جمع عدد كبير من اللاجئين الاسبان من انحاء اوروبا ويرسلهم إلى تشيلي . يصدر له ديوان « الغضببات والمشقات » ، ثم الترجمة الروسية لديوان « اسبانيا في القلب » .

١٩٤٠ - يعود إلى وطنه في مطلع العام ، ويتابع العمل في « النشيد الشامل لتشيلي » ، الكتاب الذي سيتوسع بعد عشر سنوات من العمل ليشمل اميركا بأسرها ويتحول إلى « النشيد الشامل » . في شهر آب (اغسطس) يسافر إلى المكسيك ، حيث مقر قنصليته الجديدة .

١٩٤١ - يقوم برحلة إلى غواتيمالا . وبعد عودته يمنح درجة دكتوراه فخرية من جامعة ميتسواكان . في كانون الأول (ديسمبر) ، وخلال زيارته لمدينة « كويرنا باكا » يتعرض لاعتداء من جانب جماعة نازية ، وكرد على هذا الاعتداء يتلقى رسائل التأييد من مئات المثقفين في جميع ارجاء اميركا .

١٩٤٢ - يقوم برحلة إلى كوبا . ينشر القصائد الأولى من « النشيد الشامل » . وتنفى ابنته مالفامارينا في أوروبا .

١٩٤٣ - تتولى طباعة الاعمال النيرودية في مكسيكو ، وليما ، وبوغوتا ، وستياغو . توجه إليه دعوة من صوت الاميركيتين لزيارة نيويورك . في ٢٧ آب (اغسطس) ينهي مهمته الدبلوماسية في

المكسيك ، ويقام احتفال لوداعه يحضره ألفا شخص . يعود إلى تشيلي في رحلة طويلة تتخللها عدة محطات : بنما ، كولومبيا ، والبيرو حيث استقبل بحفاوة ، وزار في هذا البلد الأخير أطلال مدينة ماتشو- بيتشو ، وهي زيارة هامة تمخضت عنها إحدى قمم « النشيد الشامل » . يصل إلى سنتياغو يوم الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) . يلقي عدداً من المحاضرات .

١٩٤٤ - ينال الجائزة البلدية للشعر . وتصدر طبعات جديدة من أعماله في نيويورك وبوينس ايرس .

١٩٤٥ - في ٤ آذار (مارس) يتم انتخابه كعضو في مجلس الشيوخ عن منطقتي تاراباكا وانتوفاغاستا . يمنح الجائزة الوطنية للآداب في وطنه . في ٨ تموز (يوليو) ينخرط في صفوف الحزب الشيوعي التشيلي . وفي النصف الأخير من هذا العام يزور ، وسط مظاهر الحفاوة ، كلاً من البرازيل والأرجنتين والأوروغواي . وفي أيلول (سبتمبر) يكتب قصيدته الرائعة « مرتفعات ماتشو بيتشو » .

١٩٤٦ - تقلده الحكومة المكسيكية وساماً . ويعين مديراً وطنياً للدعاية في الحملة الانتخابية التي يخوضها غابرييل غونثالث فيديلا مرشحاً لرئاسة تشيلي . تطبع بعض أعماله في تشيكوسلوفاكيا ، والدانمارك ، والولايات المتحدة ، والبرازيل . في فصل الربيع الجنوبي (الخريف الأوروبي) يتعرف على ماتيلدي اوروتيا . وفي ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) يحصل على قرار قانوني ينص بأن اسمه الشرعي هو بابلو نيرودا .

١٩٤٧ - يصدر ديوانه « الاقامة الثالثة ». تجمع اشعاره كاملة لأول مرة ، وتنشر في تشيلي تحت عنوان « الاقامة في الأرض ». وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ينشر في كاراكاس - بعد أن منعه الرقابة في تشيلي - نصاً بعنوان « رسالة خاصة إلى ملايين البشر » ، وبسبب ذلك يبدأ الرئيس غونثالث فيديلا بمحاكمته سياسياً .

١٩٤٨ - في السادس من كانون الثاني (يناير) يلقي نيرودا في مجلس الشيوخ خطاباً شهيراً ينشر فيما بعد تحت عنوان « اني اهتم » . وفي ٣ شباط (فبراير) يقر المجلس الأعلى تجريدته من حصانته البرلمانية ، وبعد يومين من ذلك تصدر المحاكم القضائية امراً باعتقاله . ينتقل إلى السرية ، ويكتب في هذه الأثناء « النشيد الشامل » ، ويشارك بنشاط في الجهد السياسي للمعارضة . تقام في العديد من بلدان العالم مهرجانات تضامن مع الشاعر ، وتكرس له بعض المجلات اعداداً خاصة : فمجلة ادام مثلاً - وهي مجلة ادبية عالمية تصدر في لندن - تكرس عدداً خاصاً وشاملاً حول نيرودا واعماله .

١٩٤٩ - في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) يتمكن من مغادرة تشيلي ، وذلك باجتياز سلسلة جبال الانديز من منطقتها الجنوبية . وبعد شهرين يحضر المؤتمر العالمي الأول لأنصار السلام ، ويعين عضواً في مجلس السلم العالمي : وكان هذا هو أول ظهور علني له بعد خمسة عشر شهراً من الحياة السرية . في حزيران (يونيو) يسافر إلى الاتحاد السوفيتي ، ويزور بولونيا وهنغاريا في الشهر التالي . وفي شهر آب (أغسطس) يذهب إلى المكسيك برفقة

الشاعر بول ايلوار ، للمشاركة في اعمال المؤتمر الاميركي - اللاتيني
لأنصار السلام الذي عقد هناك . يضطره المرض للبقاء في المكسيك
حتى نهاية العام ، فيلتقي من جديد بماتيلدي اوروتيا . ينشر كتاب
الوطن العذب ، كما يرى النور عدد من كتبه أو مختارات من اشعاره
صدرت في ألمانيا ، تشيكوسلوفاكيا ، الصين ، الدانمارك ،
هنغاريا ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتي ، المكسيك ، كوبا ،
كولومبيا ، غواتيمالا ، والارجنتين .

١٩٥٠ - يصدر « التشيد الشامل » في المكسيك بطبعتين في الوقت
نفسه (كما تصدر في تشيلي طبعتان اخرتان ، كلتاهما في ظروف
السرية) . يسافر إلى غواتيمالا ، وبراغ ، وباريس ، وروما ،
ونيو دلهي ، ويُستقبل بالحفاوة من جانب السلطات ومن جانب
الجمهور أينما حلّ . تترجم قصائده إلى الهندوسية والأوردية
والبنغالية . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) يحضر المؤتمر العالمي الثاني
لأنصار السلام ، الذي عقد في صوفيا ، ترافقه ماتيلدي اوروتيا .
ولدى انتهاء أعمال المؤتمر ، يلتقى مع بيكاسو وفنانين آخرين الجائزة
الدولية للسلام عن قصيدته « فليستيقظ الخطاب » . ويدعوه اتحاد
الكتاب التشيكوسلوفاكيين لقضاء فترة استجمام في قلعة دوبريس .
تصدر طبعات جديدة من نشيده الشامل في المكسيك ، وتشيلي ،
والولايات المتحدة ، والصين ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا ،
والسويد ، ورومانيا ، والهند ، والاتحاد السوفيتي ، والطبعة التي
صدرت في هذا البلد الأخير مؤلفة من ربع مليون نسخة .

١٩٥١ - عام أسفار متواصلة . يبدأها بجولة في ايطاليا ، حيث

يلقي بعض اشعاره في فلورنسة ، وتورين ، وجنوة ، وروما ، وميلانو . وفي شهر آذار (مارس) يذهب إلى باريس ؛ وفي أيار (مايو) إلى موسكو وبراغ ، وفي آب (اغسطس) إلى برلين ، إلى مهرجان كارلوفيفاري السينمائي ومهرجان مورافيا للفن الشعبي . بعد ذلك يركب القطار السييري الأسطوري ، ويزور جمهورية منغوليا الشعبية ، ومن هناك يجتاز الحدود إلى بكين . وفي هذا العام أيضاً أصبح أوسع الشعراء الناطقين بالاسبانية شهرة عالمية في كل العصور . فاضافة إلى الترجمات التي اصبحت متداولة في انحاء العالم ، ظهرت ترجمات أخرى من اشعاره إلى البلغارية ، والهنغارية ، والايسلندية ، والايديشية ، والعبرية ، والكورية ، والفيتنامية ، واليابانية ، والعربية ، والتركية ، والاوكرانية ، والاوزبكية ، والبرتغالية ، والسلوفاكية ، والجورجانية ، والأرمنية .

١٩٥٢ - يقيم في ايطاليا ، وتسافر زوجته ديليا دل كاريل إلى تشيلي . وفي شهر شباط (فبراير) يبدأ بكتابة ديوان « الكرمه والريح » في كابري . تصدر طبعة خاصة ودون ذكر اسم المؤلف من ديوانه أشعار القبطان . يسافر إلى برلين والدنيمارك ، حيث يفاجأ بالغاء أمر الاعتقال الصادر ضده منذ ثلاث سنوات ، فيعود إلى سنثاغو في الثاني عشر من آب (اغسطس) ، وتقام مهرجانات تكريم واسعة احتفاء به . يستقر للإقامة في بيته في شارع لينتش ، ويقوم خلال الشهور التالية بجولة إلى تيموكو ومناطق أخرى في تشيلي . في شهر كانون الأول (ديسمبر) يعين عضواً في لجنة

التحكيم لجائزة السلام العالمية في موسكو . يبدأ بكتابة ديوان الأغاني
البداية ، ويتمير داره التي اسمها لاتشاسكونا .

١٩٥٣ - يقوم بتنظيم المؤتمر القاري للثقافة الذي عقد في ستيياغو ،
في شهر نيسان (ابريل) . وفي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) يمنح
جائزة ستالين للسلام (التي أصبحت تعرف فيما بعد بجائزة لينين) .

١٩٥٤ - ينشر ديوانيه : أغان بدائية والكرمة والريح . تقام
احتفالات بالعيد الخمسين لميلاده وسط تكريم عالمي ، وتحضر إلى
ستيياغو شخصيات من العالم كله للاحتفال بالمناسبة . يهدي مكتبته
الخاصة وثروات أخرى إلى جامعة تشيلي ، وتقرر هذه بدورها تمويل
مؤسسة نيرودا لتطوير الشعر . يتوالى نشر طبعات وترجمات جديدة
من اشعاره في بلدان عديدة .

١٩٥٥ - يفصل عن زوجته ديليا دل كاريل . ينتهي من بناء بيته
المسمى لاتشاسكونا ، وينتقل ليعيش فيه مع ماتيلدي اوروتيا .
تظهر في هذا العام ترجمات جديدة بالألمانية ، والايطالية ،
والرومانية ، والعربية ، والفارسية . يسافر إلى الاتحاد السوفيتي
والصين ، وإلى بلدان اشتراكية أخرى . وعند عودته إلى اميركا يلقي
محاضرات واشعاراً في البرازيل والاروغواي ، ويمضي اجازة لبعض
الوقت في توتورال ، التابعة لولاية قرطبة الارجنطينية .

١٩٥٦ - ينشر ديوان « أغان بدائية جديدة »

١٩٥٧ - تنشر دار النشر لوسادا ، في بوينس ايرس ، الطبعة
الأولى من « اعماله الكاملة » . يبدأ بكتابة « مائة قصيدة حب » .

يسافر في نيسان إلى بوينس آيرس ، حيث تعتقله الشرطة ويمضي يوماً ونصف اليوم في السجن الوطني ، ثم يغادر الأرجنتين دون أن يقيم الاماسي التي كان مقرراً اقامتها ، ويبدأ برحلة إلى الأماكن التي عرفها في شبابه : رانغون ، كولومبو ومدن أخرى في الشرق . ولدى عودته ، يعين رئيساً لجمعية الكتاب في تشيلي . وينشر ديوانه « الكتاب الثالث للأغاني » .

١٩٥٨ - عام انتخابات رئاسية في تشيلي ، وعام نشاطات سياسية كبيرة بالنسبة لنيرودا . ينشر ديوانه : « شاذ » .

١٩٥٩ - يسافر عبر فنزويلا وسط الحفاوة والتكريم طوال خمسة شهور . وفي السفارة الكويتية في كراكاس يتعرف على فيدل كاسترو . ينشر كتابيه : « أبحارات وعودات » ، و « مائة قصيدة حب » .

١٩٦٠ - يسافر إلى أوروبا في شهر نيسان (ابريل) ، وينهي كتابه المهدى إلى كوبا « أغنية مفخرة » وهو على متن السفينة لويس لومبيه . يتجول في الاتحاد السوفيتي ، وبولونيا ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويقوم بزيارة العام في باريس . يجتاز الحدود إلى إيطاليا ومن هناك يستقل الباخرة إلى هافانا . وهناك ينشر « أغنية مفخرة » .

١٩٦١ - ينشر « أحجار تشيلي » و « أغان احتفالية » ، كما تُطبع النسخة المليون من كتابه « عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة » . وتظهر طبعات جديدة لكتبه في فرنسا والولايات المتحدة .

١٩٦٢ - عضو اكاڊمى فى كلية الفلسفة والتربية فى جامعة تشيلى . ينشر ديوانه « صلاحيات كاملة » . يسافر إلى ايطاليا ، وفرنسا وبلغاريا ، والاتحاد السوفيتى .

١٩٦٣ - يظهر فى مجلة Bormiers Litterata Magasia ، الصادرة فى استوكهولم ، مقال مطول حول نيروڊا ، كتبه ارثر ليندكفيست ، وهو عضو مؤثر فى الاكاديمية السويدية ، ويُفسّر الأمر على أنه تأكيد للاشاعات الكثيرة القائلة أن جائزة نوبل ستمنح للشاعر .

١٩٦٤ - ينشر ديوان « ذكريات ايسلا نفرا » ، وترجمته لمسرحية شكسبير روميو وجوليت ، التي عرضت فى ستياغو فى العام نفسه . تنظم المكتبة الوطنية التشيلية ندوة حول الأعمال النيروڊية ، بمناسبة الذكرى الستين لميلاد الشاعر . يشارك فى الحملة لانتخابات الرئاسة .

١٩٦٥ - فى شهر شباط (فبراير) يسافر إلى اوروبا ، حيث يبقى طوال العام . وفى حزيران يمنح درجة دكتوراة فخرية فى الفلسفة والآداب من جامعة اكسفورد ، وهي درجة تمنح للمرة الأولى إلى اميركي جنوبي . يمضي فترات فى باريس وبودابست ، ويكتب فى هذه المدينة الأخيرة : ونحن نأكل فى هنغاريا - كتاب مشترك مع ميغيل انخل استورياس - وقد نُشر الكتاب بخمس لغات فى وقت واحد . يحضر اجتماع نادى القلم فى « بليد » بيوغسلافيا ، ومؤتمر السلام فى هيلسينكي (فنلندا) . ثم يذهب إلى الاتحاد السوفيتى كحكم لجائزة لينين ، ويعود إلى تشيلى فى كانون الأول (ديسمبر) .

١٩٦٦ - يسافر إلى الولايات المتحدة كضيف شرف على اجتماع
لنادي القلم . ويلقي اشعاره في نيويورك ، وبيركلي ، وواشنطن .
كما يلقي قصائده في المكسيك والبيرو ، ويقلده هذا البلد الأخير
وسام (اوردن دل سول) . وفي ٢٨ تشرين الأول (اكتوبر) تصدر
في تشيلي الموافقة القانونية على زواجه من ماتيلدي اوروتيا ، وكانا قد
عقدا زواجهما في الخارج . ينشر كتاب « فن العصافير » . يتلقى
جائزة (اتينيا - Atenea) ، من جامعة كونثيبيشون ، عن مجمل
اعماله .

١٩٦٧ - يمنح جائزة فيارجيو العالمية في ايطاليا . ينشر ديوانه
« اغنية البحارة » ، ومسرحيته « تألق وموت خواكين موريتا » وهي
مسرحيته الأولى والوحيدة ، وفي هذه السنة أيضاً تُمثل المسرحية في
سنتياغو . تصدر طبعة جديدة ومزينة من اعماله الكاملة .

١٩٦٨ - ينشر ديوان « أيادي النهار » . يتلقى وسام
جوليوكوري ، ويختار عضواً شرف في الاكاديمية الأميركية الشمالية
للفنون والآداب ، وفي الجمعية الوطنية للفنون والآداب . يسافر إلى
الاروغواي ، والبرازيل ، وكولومبيا ، وفنزويلا . ويبدأ بكتابة عمود
خاص في مجلة إريشيا ، التي تصدر في سنتياغو .

١٩٦٩ - ينشر أربعة كتب جديدة هي : « نهاية العالم » ،
و« مازال » ، و« مختصر » و« كأس الدم » . يختار عضواً في
الأكاديمية التشيلية للغة ، ويمنح لقب دكتور شرف من الجامعة
الكاثوليكية في تشيلي ؛ كما يمنحه مجلس الشيوخ التشيلي الميدالية
الفضية التي تمنح لآبناء الوطن اللامعين . في ٣٠ ايلول (سبتمبر) ،

يرشحه الحزب الشيوعي التشيلي لرئاسة الجمهورية .

١٩٧٠ - بسحب ترشيحه للرئاسة لصالح الدكتور سلفادور الليندي ، المرشح المشترك للأحزاب الشعبية . يسافر إلى أوروبا لمشاهدة افتتاح عرض مسرحيته « تألق وموت خواكين موريتا » في مسرح بيكولو تيتارو بمدينة ميلانو ، ويدعى لالقاء قصائده في السوربون بباريس . ينشر كتابي « السيف المتقد » و « أحجار السماء » .

١٩٧١ - تنتج القناة ١٣ في التلفزيون التشيلي فلماً بعنوان : « تاريخ وجغرافية بابلو نيرودا » . وفي ١٢ كانون الثاني (يناير) يوافق مجلس الشيوخ التشيلي على تعيينه سفيراً للبلاد في فرنسا ، ويشغل هذا المنصب اعتباراً من شهر آذار (مارس) . في ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) يمنح جائزة نوبل للآداب . يسافر إلى استوكهولم لاستلام الجائزة ، ومن هناك يذهب إلى بولونيا لحضور افتتاح مسرحيته « خواكين موريتا » .

١٩٧٢ - ينشر ديوان جغرافية باطلة . وفي تشرين الأول (أكتوبر) يعين عضواً في المجلس الاستشاري لليونسكو لمدة أربع سنوات . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) يعود إلى وطنه حيث يتلقاه الشعب التشيلي بالتكريم والحفاوة في حفل حاشد في الاستاد الوطني .

١٩٧٣ - في ٥ شباط (فبراير) يستقيل من سفارته في باريس ، لأسباب صحية ، ويقيم في بيته في ايسلانغرا . يظهر ديوانه

« تحريض ضد النيكسونية واشادة بالثورة التشيلية » ، وهو الكتاب الأخير الذي يُنشر في حياته . يوجه نداء إلى المثقفين الاميركيين ، ينبههم فيه إلى الوضع التشيلي ، الذي يعتبره « فيتنام صامتة » . في ١١ أيلول (سبتمبر) يقع ، فعلاً ، الانقلاب العسكري الذي قضى على الحكومة وعلى حياة سلفادور الليندي . وبعد أيام قليلة يموت نيرودا ، ليلة ٢٣ أيلول (سبتمبر) ، ضحية سكتة قلبية .

كأس الدم (١٩٠٤ - ١٩٢٠)

« هناك في الضوء الداهل ،
حُسيم تحالفي
مع الأرض » .

وُلد ريكاردو إليثار نيفتالي ريس باسو ألتو- الخالد باسم بابلو نيرودا- يوم ١٢ تموز (يوليو) ١٩٠٤ في « برال » ، وهي بلدة كروم وأعشاب تابعة لمقاطعة « ليناريس » ، في وسط الأراضي التشيلية المعذبة العجيبة . ولكن « برال » لن تكون المشهد الذي سيتذكره الشاعر ويستحضره ، ولا البلدة الأساسية التي سيسميها بألف طريقة طوال نصف القرن الذي مارس خلاله كتابة الشعر . فقد اخذوه وهو في الثالثة من عمره إلى بلدة « تيموكو » ، « حيث يُولد المطر » ، والحد الجنوبي للحضارة في ذلك الحين ؛ فإلى الجنوب منها لا يخاطر بالذهاب سوى المتبعين على قيد الحياة من الهنود الأروكانيين الصبورين الصامتين ، إن تيموكو ، المحاطة دائماً بوابل السموات الجنوبية ، في المنطقة التي تضيق فيها تشيلي حتى لتكاد تختنق ما بين سلسلة جبال الأنديز والمحيط ؛ هي محطة للسكة الحديد ، ومخازن

للمخردوات المتنوعة ، وبعض المصالح القليلة الأخرى ، وبضعة مئات من البيوت الخشبية ، ذات أرضيات فسيحة وجوانب قائمة ، وعبر باحات هذه البيوت المتصلة ببعضها تقريباً ، كانت العائلات « تتبادل الادوات أو الكتب أو حلويات أعياد الميلاد ، أو المراهم للدلك ، أو المظلات أو الطاولات والكراسي » . تلك البيوت التقليدية ، التي بها « شيء من المعسكرات » ، حيث « تبدو لدى دخولها براميل ، وأدوات عدة ، وأسرجة خيول ، وأشياء أخرى يقصر عنها الوصف » ، كانت ترسم بشكل معجزٍ قرية (وقد توسعت تلك القرية حتى أصبحت في الوقت الحاضر مدينة تضم مائة وعشرين ألفاً من السكان) مفتوحة مثل ثغرة وسط صمت وخضرة الغابات الجنوبية الكثيفة . إلى هذه الغابات - التي تعتبر من أكثف غابات الدنيا ، بأشجارها العملاقة المتشعبة وبأحراجها الممتلئة باخضرار الرطوبة الدائمة - يجب الذهاب للبحث عن أعمق مفاتيح رموز الشاعرية النيرودية : النَّفس الكوني لأشعاره ، والطاقة الروحية التي تسنده .

في كأس الدم - وهو نص كُتب في بداية الأربعينات ، وتأخر نشره مستقلاً ربع قرن من الزمان - ذكر نيرودا للمرة الأولى هذه الغابة البدائية الغارقة بالماء (غابة الوجدانية الأسطورية ، الجبل السحري ، والمكان المشيمي الذي يُختصر الكون) والتي ستصبح أكثر جلاء في أفضل كتب سنواته الأخيرة .

عندما كنت ارجع مشوشاً في رحلات القطارات العجيبة ، كما كان يرجع الاسلاف على صهوات جيادهم ، ابقى ساهماً

ومتفكراً في خصوصياتي فحسب : فأنا انتمي إلى جزء من
أرض الجنوب البائسة قريباً من اروكانيا ، وقد كان تحركي منذ
أبعد الساعات ، محكوماً بأن تلك الأرض الغائبة والغارقة
دوماً بالأمطار تمتلك من اسراري سرّاً لا أعرفه ، وإن عليّ أن
أتوصل لمعرفة ، فأبحث ، تأثها ، فاقدأ صوابي ، وأنفحص
الأنهار الطويلة ، والنباتات التي لا يمكن تصورها ، وأكوام
الخشب ، وبحار الجنوب ، مغرقاً نفسي في علم النبات وفي
المطر ، دون أن أصل إلى هذا الامتياز الزبدي الذي ترسيه
الأمواج وتحطمه ، دون أن أصل إلى هذا المتر الأرضي
الخاص ، دون أن ألمس رمالي الحقيقية . عندئذ ، وبيننا القطار
الليلي يجتاز صاحباً المحطات الخشبية والفحمية وكأنه يصطدم
وسط بحر الليل بصخور مخفية تحت الماء ، أشعر بأنّي أتضاءل
وأصبح تلميذاً ، أصبح طفلاً في برد المنطقة الجنوبية ،
مدرستي في ملامح الشعب ، وأمام قلبي غابات نهاية العالم
الرحبية الرطبة .

والماء - الذي لولا وجوده الدائم لما كان بالإمكان تصور الغابة
الجنوبية - يظهر أيضاً في النص وكأنه يقيم صلة ما بين الشاعر وأكثر
منابع الشعر سرّية . فعندما كان على نيرودا اخراج جثة أبيه ، بعد
أسابيع من موته ، ليدفنها في مكان آخر . كانت رطوبة المنطقة قد
شقت التابوت خلال هذا الزمن القصير ، و:

« رأينا كميات كبيرة من الماء تنز منه ، كميات وكأنها ليرات لا
تنتهي تسيل من جوفه ؛ من جوفه .

لكن ثمة تفسيراً لكل هذا ؛ فهذه المياه التراجيدية كانت
امطاراً ، ربما هي أمطار يوم واحد فقط ، أو ربما هي أمطار
ساعة واحدة من مطر شتائنا الجنوبي ، وقد اخترق هذا المطر
السقوف والحواجز والطُوب ومواد أخرى وموت آخرين حتى
وصل إلى قبر قريبي . حسناً ، إن هذه المياه الرهيبة ، هذه
المياه الخارجة من غباً مستحيل ، غباً لا يُدرك ، غباً بعيد
الغور لتُظهر لي سرها الأرضي ، هذه المياه الأصلية والمخيفة
نبهتني مرة أخرى بانسكابها السحري إلى علاقتي المتواصلة
بحياة محددة وبمنطقة وميتة محددتين .

وكأبيه (« لقد توفي والدي في تيموكو ، لأنه كان رجلاً من اجواء
أخرى . وهو مدفون هناك ، في واحدة من أكثر مقابر الدنيا
امطاراً ») كان نيرودا أيضاً مُتزعجاً من أودية النيذ والشمس المشرقة
إلى الأرض الظليلة الدائمة الرطوبة : وبها سيتزعزع- هشأ
وخجولاً ، صامتاً ومتوحداً- متأثراً حتى الأعماق بالاستعراض
المهيب الذي يتطور أمام حواسه . ليس الشاعر فحسب ، وإنما أيضاً
عالم الرخويات الذي سيصيره نيرودا- إذ أصبح يملك مجموعة من
أهم مجموعات القواقع في العالم- ، ومشيد البيوت الذي لا يكل- من
البيوت التي بناها : ايسلا بغرا ، لاتشاسكونا ، لاسيباستيانا- ،
ومبررات أخرى كثيرة كانت تدفع الرحالة الشارد والمدهول للعمل
من أجل إعادة خلق العالم دوغماً كلل . إن هذه الشخصيات المتعددة
لنيرودا تتحد جميعها في المنهل المشترك لطفل تيموكو ، الذي أحب
الحشرات ، والعصافير ، والثمار ، والذي كان قليل المودة تجاه

الانضباط ، ولأعب كرة القدم السيء . ولكنه أيضاً : القارئ
النهم ، والشاعر المبكر دون جمهور مستمعين في ذلك الحين .

«أصعد إلى غرفتي في الأعلى . واروح أقرأ لـ Salgari . ينهمر
المطر كشلالات . وفي لحظة يلف الليل والمطر العالم . وهناك
أكون وحيداً ، أكتب على دفتر الحساب أبياتاً من الشعر» .

أي عام تستحضر هذه الكلمات ؟ . تقول مرغريتا أغيري ، إن
نيرودا كان يكتب الشعر قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره ،
مستندة بذلك على بطاقة بريدية مؤرخة في ٣٠ نيسان (ابريل)
١٩١٥ ، يهدي بها قصيدة إلى زوجة أبيه (أو «أمي» كما اعتاد أن
يسميتها دائماً) ، وتحتفظ بهذه البطاقة لاورا ريبس ، شقيقة الشاعر ،
في أرشيفها الخاص . ويبدو أن الحادثة التي يتذكرها نيرودا ، والتي
تركها مكتوبة تعود إلى ما قبل تلك السن .

في طفولتي المبكرة ، وكنت حينها قد بدأت تعلم الكتابة ،
شعرت ذات مرة بانفعال غامر فسطرت بضع كلمات شبه
مقفأة ، ولكنها كانت غريبة عليّ ، فهي مختلفة عن الحديث
اليومي . أعدت نسخها على ورقة نظيفة وأنا أسير قلق
عميق ، وشعور كنت أجهله حتى ذلك الحين ، نوع من
الكآبة والأسى . كانت قصيدة موجهة إلى أمي ، أعني ، إلى
المرأة التي عرفتني كأُم لي ، إلى زوجة أبي الملائكية التي حمى
ظلها الرقيق طفولتي كلها . كنت عاجزاً تماماً عن تقييم نتاجي
الأول ، فأخذت القصيدة إلى والدي . كانا في غرفة الطعام
غارقين في أحد هذه المحادثات التي تدور بصوت هامس والتي

تفصل أكثر من نهر ما بين عالم الأطفال وعالم الكبار . مددت
لها الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت ارتعد من الزيارة
الأولى للوحي . تناولها والدي بيده وهو ساو ، وقرأها وهو
ساو ، وأعادها لي وهو ساو ، ثم قال :

.. من أين استنسختها ؟

وتابع حديثه مع أُمي بصوت خفيض ، حول شؤونها
المهمة والملحة .

إن هذه الحكاية تبدو مفرطة بالنمोजية مما يشكك بصحتها ،
ولكن هنالك في جميع الأحوال عنصرين حقيقيين : عدم مبالاة ،
وليس عدائية عامل سكة الحديد السيد رئيس تجاه نشاطات ابنه
الشعرية (وهذا هو سبب الأسماء المستعارة العديدة التي استخدمها
الشاعر في بداياته ، إلى أن استقر على الاسم الذي اشتهر به) ،
والنشاط المبكر للشاعر ، ونتائجه الباهرة في بداية صباه تكشف عن
اساليب تقنية لا سبيل لمقارنتها بالنتائج التي توصل إليها غيره من
الكتّاب المبكرين .

نحن نعرف أنه نشر قصيدته الأولى (« عيناى ») في مجلة كورّي -
بويلا) وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وأنه فاز بالجائزة الأولى
للشعر في مهرجان الربيع في تيموكو بعد سنتين من ذلك ؛ ونعرف
أيضاً أنه كان يملك ديوانين منجزين هما : الجزر الغربية وأتعاب بلا
طائل ، وأنه لم ينشرهما ولكنه استخدم موادهما في بعض موضوعات
ديوانه غسقيات ، وهو الكتاب الأولي الذي بدأ يتبلور في خياله

حينئذ . ومن الواضح أن الطموح على مستوى الشكل والمهارة التقنية البارزين في غسقيات (هذا الكتاب الذي لم يدخل عليه مؤلفه أية تعديلات بعد صدور طبعته الثانية عام ١٩٢٦) ، ليست اموراً يمكن احرازها بين عشية وضحاها ، مما يدفع إلى الافتراض بأن بداياته السابقة كانت جديرة بالاعتبار .

لقد كنت مدفوعاً دائماً للتفكير في تفصيل مثير ومغرٍ لصداقة اتى على ذكرها نيرودا نفسه في مذكراته . ففي عام ١٩٢٠ ، عندما انتهى الشاعر دراسته في الليسيه ، وكان يتهيأ للقفز إلى ستيياغو ليعيش مغامرته العاصمية .

في ذلك الوقت وصلت إلى تيموكو سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة وتنتعل حذاء ذا كعب واطئ . كانت ملابسها بلون الرمل . إنها مديرة الليسيه ، قدمت من مدينتنا الجنوبية ، من ثلوج « ماغايانيس » . . . (. . .) لها ابتسامة عريضة ناصعة في وجهها الملوّح بسبب الدم والطقس . . . (. . .) لم تثر دهشتي عندما كانت تُخرج من ملابسها الكهنوتية كتباً تسلمني إياها فآلتهمها ، وهي التي جعلتني أقرأ للأسماء العظيمة الأولى في الأدب الروسي التي أثرت بي كثيراً .

كان عمرها ٣١ عاماً ، وعمر الشاعر - الطفل ١٦ عاماً ، وهذا لم يمنع قيام صداقة ستستمر طويلاً ، بطول حياة المعلمة . كان اسمها لوثيا غودي ، ولكنها مثل صديقتها الجديد كانت تكتب باسم مستعار ؛ فهي توقع قصائدها باسم غابرييلا ميسترال .

رامي المقلاع المتحمس

(١٩٢١ - ١٩٢٦)

« وأجعلُ ذراعِي تدوران
كلذراعِي مروحةً مجنونة . . . »

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٠ ، يتخذ نيفتالي بشكل نهائي اسم بابلو نيرودا كـ«nom de guerre» ؛ وفي بدايات السنة التالية ، يغادر تيموكوليتابع الدراسة كاستاذ لغة فرنسية في معهد سنتياغو التربوي . إن هذه الفترة من السنة تقطع السيرة النيرودية مثل سيف ؛ فقد خلّف وراءه أمطار الجنوب الطويلة ، والمادة الأولية الكثيفة التي سيغذي بها اعماله ؛ وفي السنوات الخمس التالية سينتج الشاعر نصف دزينة من الكتب - سيبرز منها أكثر من عمل متميز في سيرورته الشعرية - وسيستقر نهائياً في مهنة الشعر . وعندما تنتهي هذه السنوات الخمس ، يكون نيرودا قد بلغ الثانية والعشرين من عمره فقط ؛ ولكنه يكون قد امتلك زمام جميع الأسلحة التي ستجعل منه معيناً من الشعر لا ينضب طوال نصف القرن التالي . لا وجود لشيء استثنائي في حياته في هذه الفترة - ومع ذلك لا بأس من

ايجازها-، ولكن في قلب شاعريته السري كان ثمة شيء يترسخ وينمو، بشكل ثابت ومستقر: ومع أن النجاح الباهر تأخر في أن يكون رفيقه اليومي، خلال مرحلة «شفقيات ماروري»- اسم شارع النزل الطلابي الذي عاش فيه- فإن نيرودا كان يدرك أن قدره لن يعرف وفاء أكبر من وفاء الكلمة. وبعد سنوات طويلة- بمناسبة تكريمه في العيد الستين لميلاده- سيتذكر نيرودا تلك السنوات التنبؤية؛ سنوات رامي المقلع المتحمس.

هذا الكتاب، الذي اثارته عاطفة حب عارم، كان مشيئتي الطورية (Ciclica) الأولى في الشعر: ارادة شمول الانسان، في الطبيعة، العواطف، الاحداث ذاتها التي تتطور هنالك، في وحدة واحدة. كتبت وأنا محموم ومجنون تلك القصائد التي اعتبرها، بعمق، قصائدي. واعتقد أي انتقلت بها من الفوضى إلى نوع من التخطيط الشكلي.

إن التجارب الأولى، والإنحذارات الأولى إلى واقع المدينة التي ولجها ذاك الابن المتوحد للغابات، لم تخل مع ذلك من الغرابة، وحتى من الدهشة.

كان الكتاب في سنتياغو يعيشون سجناء في صناديق. فهم يخرجون من الصندوق الذي يعملون فيه ليحشروا انفسهم في صندوق آخر له شكل المقهى أو البار، ثم يمضون فيما بعد ليناموا في صندوق له شكل البيت. هكذا كنت أرى الحياة الأدبية. كيف يستطيعون العيش دون أن يهرعوا كل مساء

لجمع أزهار الكوييهوي أو للملاحقة طيور البطريق كما يحدث في
شواطئ امبريال السفلى ؟

وما أن تنقضي المفاجأة ، حتى يبدأ ، مع ذلك ، بالخوض في هذه
الحياة التي كانت قدراً له : فتصبح مشاركته بمجلة كلاريداد أوسع ؛
ويترجم ريلكه واناتولي فرانس ؛ ويمارس النقد الأدبي ؛ وينشر - قبل
أن يتم العشرين من عمره - كتابين هما : غسقيات ، وعشرون
قصيدة حب وأغنية يائسة . لقد صار وجهاً معروفاً وسط هذه
البوهيمية المضطربة الهائجة ، بوهيمية الطليعة الأدبية التشيلية لما بعد
الحرب العالمية الأولى ، وصديقاً لأبرز الأسماء فيها : بدءاً من
« دكتاتور الأدب الشاب » اليريو اويارتون « البودليري الشاحب ،
ابن عصر الانحطاط الماليء بالزايا ، باربا جاكوب التشيلي ،
المعذب ، المصاب بلوثة » ، وانتهاء بروساميل دل بايي ، مروراً
بأنخل كوتشاغا ، وخواكين تيفوينتيس سيبولفيدا ، وراؤول أتوكار ،
وهوميرو ارثي ، والبيروتو بالديينا - « العزيز جثة » كما اعتادوا تسميته
لنحافته وشحوبه - ، دون نسيان الاستاذ الارستقراطي بيدروكين ،
الذي علمه اساليب « التواصل البليغ لفئة الانتلجنسيا » ، أو تأثير
خوان غاندولفو ، استاذة المثقف الآخر ، والذي اهداه ديوانه
غسقيات . الغائب الأكبر في تلك المرحلة ، هو فيشتي هويدوبرو -
الذي لم يحبه نيرودا أبداً ، إلا بشكل مهذب ودبلوماسي ، واعترف
بأنه لم يكن يشاطره شاعريته ولم يكن يفهمها - كان يمضي في تلك
السنوات مُشعاً ببريقه الباريسي ، على شفا الضجر وخيبة الأمل - .
ولكن بين جميع هؤلاء ، كان البيروتو روخاس خيمينيث هو ، دون

شك ، الصديق الأساسي ، محرك الحياة ، والظرافة التي ستتزع الشاب الريفي بقسوة من خجله ، واصرارها على نتاجه الذي كان يستخرجه في ذلك الحين من عزلته السوداوية . هذا « المبدؤ الأكبر بحياته » كان « أنيقاً ورشيقاً ، رغم البؤس الظاهر الذي يتخايل وسطه مثل عصفور مذهب » ، إنه صاحب « السلوك المتعفف الأبى ، والتفهم السريع لأدق النزاعات ، والمعرفة الجذلى والقابلية الشهية لكل الأشياء الحيوية . لقد تذكره نيرودا في صورة من أجمل الصور في مذكراته :

كتب وفتيات ، زجاجات وسفن ، مسالك وارخبيلات ، كل هذا كان يعرفه ويستخدمه حتى في أدق دقائقه (. . .) لم يُعذني أبداً بمظهره الارتياحى ، ولا بعصفه الكحولى ، بيد أنى ما زلت أذكر حتى الآن بحنين شديد وجهه الذي كان يضيء كل شيء ، ويجعل الجمال يطير في كل الانحاء ، كما لو كان يبعث الحركة في فراشة مخبئة (. . .) كان يكتشف شعراء من فرنسا ، وقوارير خمر قائمة مدفونة في الاقبية ، وكان يبعث برسائل غرامية إلى بطلات فرانسيس جيمس . إن ابياته الشعرية كانت تتجمع في جيوبه ، دون أن تنشر ، وهي لم تنشر حتى الآن .

ويعتبر أورلاندو اويارثون - شقيق اليريو ، والذي نشرت مجلة اورورا مذكراته ، في سنتياغو عام ١٩٦٤ - إن صداقة روخاس خيمينيث كانت عاملاً حاسماً بالنسبة للخيال النيرودى في التخلى عن مهنة التعليم والاتجاه بكل الامكانيات نحو الأدب ؛ فقد كتب

اورلاندو يقول : جدران الطين المطلية بالكلس الأبيض في غرفة بابلو كانت مغطاة برسوم ، وأبيات شعر وعبارات هازلة تسعى كلها لالخراج بابلو من انزوائه السوداوي ؛ كتابات من نوع : ليس مستحسن أن يحيا المرء وحيداً !

وتحدثنا مرغريتا اغييري أن روخاس خيمينيث ، هذه الشخصية الروائية ، قد توفي في سنتياغو ، وهو في اوج الشباب ، يوم ٢٥ أيار (مايو) ١٩٣٩ ، بعد اصابته بذات الرئة التي نزلت به لانه ترك معطفه مرهوناً في البار الأخير حيث كان يشرب . ويتلقى نيرودا ، وهو قنصل حينئذ في برشلونة ، نبأ موته بحزن شديد .

كنت أعلم أنه سيموت بين لحظة وأخرى ، فحياته الجنونية كانت استمراراً لانتحار آخر . ولكن يبدو لي أن ثمة خيانة في اختطاف الموت له دون أن أكون إلى جانبه . لقد كانت لصداقته قيمة كبيرة جداً في سنواتي الأولى . فبينما كان يسخر مني ، برقته اللامتناهية ، ساعدني على التخلص من لهجتي القائمة (...) لقد كان مثل بحار ماجن ، أدبي بلا حدود ، وكاشف عن روائع صغيرة وحاسمة من الحياة العادية .

وتكريماً لذكرى الصديق الميت ، أجرى نيرودا طقساً كطقوس ارفيوس - برفقة الرسام اساياس كايثون - وذلك بتقديم شمعتين عملاقتين لقديسة البحارة الصيادين ، في كتدرائية سانتا ماريا دل مار ، وقضاء ليلة في الميناء ، والسكر بنبيذ أخضر . كما فعل شيئاً آخر ؛ شيئاً أكثر حسماً : إذ كرس له أفضل مراثاة كتبها ، وهي واحدة من قمم المراثي المكتوبة بالاسبانية في هذا القرن ومن أكثرها

لوعة ، بعنوان : البيرتو روخاس خيمييث يجيء طائراً .

ما بين الريش المخيف ، ما بين الليالي ،
ما بين ازهار المانوليا ، وبين البرقيات ،
ما بين ريح الجنوب وريح الغرب البحرية ،
تجيء طائراً .

.....

يوجد « روم » ، وأنت وأنا ، وروحي حيث أبكي ،
ثم لا أحد ، ولا شيء ، سوى سُلم
محطم الادراج ، ومظلة :
وتجيء طائراً .

إلى البحر هناك . أنزل ليلاً واسمعك
تأتي طائراً تحت البحر ، وحيداً ،
تحت البحر الذي يسكنني ، قائماً ،
تجيء طائراً .

أسمعُ جناحيك وطيرانك البطيء ،
ومياه الموق تصفعي
مثل حمام عمياء مبلة :
تجيء طائراً .

تجيء طائراً ، وحيداً متوحداً ،
وحيداً بين موق ، وحيداً إلى الأبد ،

تجيء طائراً دون ظل ودون اسم ،
دون سكر ، دون فم ، دون ورد ،
تجيء طائراً .

لم تكن تلك السنوات هي سنوات الصداقة فحسب ، وإنما هي
أيضاً سنوات الغراميات العاصفة . ومع أن نيرودا كان حذراً دائماً -
ربما بمبالغة - فيما يتعلق بماضيه العاطفي ، فقد أمكن معرفة وجود
حينين كبيرين على الأقل في سنوات ربيع الغرامى ، وهما : ماريسول
وماريسومبرا ، اللتان يسميهما في مذكراته . الأولى هي الحب الذي
خلفه في تيموكو ، والثانية هي الحبيبة في سنتياغو . وكلتاهما تظهران
في غسقيات ، وكلتاهما - على التوالي - ملهمتا القصائد الذائعة
الشهرة « عشرون قصيدة حب . . . » . وتعودان للظهور تحت
اسمَيَ تيروسا وروساورا ، بعد نضج الشاعر ، في بعض أشعار
ديوان ذكريات ايسلا نغرا .

الآن وأنت تأتين زائرة ،
أيتها الصديقة القديمة ، أيتها الحب ، أيتها الطفلة اللامرئية ،
أرجوك أن تجلسي
مرة أخرى
على الأعشاب .

يبدو لي الآن
إن رأسك قد تغير .
لماذا

- لثأني -

عطيت بالرماد

شعرك الفحيمي الباسل

الذي حللته بيدي ، في برودة

نجوم تيموكو ؟

ويقول لروساوا ، ابنة أحد أحياء سستياغو الشعبية ، بعد مرور
أربعين سنة أيضاً :

تغير الرسام

ولم يرسم الوجوه ،

ولمّا العلامات والندوب ،

وأنت ماذا تفعلين

دون ثقب

الآلم والموت ؟

وأنا ماذا أفعل

بين أوراق الأرض ؟

وإذا كنت اذكر الآن هذه النماذج من الوفاء ، فلكي أبرز -
بشكل عابر ، وفي الهامش الصغير الذي يسمح به هذا الكتاب -
إلحاح الذاكرة في أعمال نيرودا كلها ؛ والورع تجاه الكائنات والأشياء
التي مرت في حياته الخاصة ، ليس لهذه التفاصيل الحياتية طبعاً كبير
اهمية (مع أنها ضرورية أحياناً للاحكام التي اقصدها) ، وقد تحدث
الشاعر نفسه عن ذلك في محاضرة ، نصها الاصيل محفوظ في أرشيف
خورخي سانويثا .

كنت قد وعدتكم بتقديم تفسير لكل قصيدة من قصائدي الغزلية . لقد نسيت أن السنوات قد مضت . وهذا لا يعني أنني نسيت احداً ، وإنما إذا فكرنا جيداً ، فإننا نقول : ما الذي ستستخلصونه من الأسماء التي سأذكرها لكم ؟ ما الذي ستستخلصونه من صفات سوداء في شفق محدد ؟ ما الذي ستستخلصونه من عينين واسعتين تحت المطر في شهر آب ؟ ما الذي أستطيع قوله عن قلبي ولا تعرفونه ؟

للتكلم بصراحة . لم انطق يوماً بكلمة حب ليست مخلصاً ، ولم استطع أن اكتب بيتاً واحداً من الشعر بلا حقيقة .

إن الصحيح والباقي هو ، دون شك ، الكتب الستة التي كتبها خلال هذه الفترة الغزيرة . ويكفي أن نقول ؛ لو أن نيرودا مات أو صمت وهو في الثانية والعشرين من عمره ، فإن تلك الكتب كانت ستكفي لمنحه مكانة ذات مغزى في الشعر الغنائي المعاصر الناطق بالاسبانية . وحتى الكتب الصغيرة - المقيم وأمله : وهو «nouvelle» قائمة كتبها استجابة لرغبة ناشره ؛ وخواتم ، وهو مجموعة من النثر الشعري - تلفت الانتباه بلغتها الواثقة ، مثل براعم صغيرة متفتحة على شجرة وارفة ورأسخة في الأرض . أما الكتب الأربعة الأخرى فلا بد من الحديث عنها كل على حدة .

في محاولة لتجاوز غسقيات ، كتب نيرودا رامي المقلع المتحمس وانتهى منه تماماً عام ١٩٢٤ ، ولكن الكتاب لم يرَ النور إلا بعد مرور عشر سنوات ، وذلك بسبب رقابة الشاعر الذاتية ، فبعد أن تأكد

من أنه وجد الصوت العظيم المتميز الذي كان يبحث عنه ، ظن أن
في صفحاته التي كتب تأثراً ظاهر الوضوح بالشاعر الاروغوايي
كارلوس سابات اركاستي . ولقد احتفظ نيرودا دائماً بهذا الرأي ،
مع أن الجزء الأكبر من أفضل أشعار الكتاب كان يتنفس من أنفاس
عشرون قصيدة حب التي لا شك في أنها أنفاس نيرودية (« أنت
كلك من زبد نجيل وخفيف / تعبرك القبلات وتضمخك الأيام »)
وحتى في الوتيرة العالية - إذا ما جردنا بلاغته الحماسية - التي وصل
إليها الشاعر في دواوين الإقامة .

امتلئي بي .
اشتاقني إليّ ، استنزفني ، اسكيني ، اقتليني كأضحية .
طالبيني ، التقطيني ، احتويني ، خبثيني .
أريد أن أصير مُلكاً لأحد . مُلكاً لك . إنها ساعتك .
أنا الذي مررت قافراً فوق الأشياء ،
أنا الهارب ، العليل .

ومن الأعمال المعاصرة لهذه الجهود يأتي ديوان محاولة الانسان
اللانهايي ، وربما هو من أقل كتب نيرودا قراءة ، والكتاب الذي
نال ، دون شك ، أقل تعليق من الشراح . وبعد أربعة عقود من
كتابه ، قدم له مؤلفه بعض الكلمات العادلة :

لقد نظرت دائماً إلى محاولة الانسان اللانهايي كأحد البؤر
الحقيقية لشعري ، لاني وأنا أنظم هذه القصائد ، في تلك
السنوات البعيدة ، كنت أتوصل إلى وعي لم أكن امتلكه
قبلاً . وإذا ما كانت للتعبير ، أو للوضوح ، أو للغموض

قياسات ، فإنها كذلك في هذا الكتاب ، الشخصي إلى أبعد الحدود .

وعلى الرغم من كونه أكثر كتبه احكاماً ، فإن محاولة الانسان يتضمن ، فعلاً ، بعض العناصر التي سيعيد الشاعر صياغتها في نضوجه الشعري . أني أرى الكتاب كله وكأنه قصيدة واحدة مرتبة حسب سياق يبدأ وينتهي في ما هوليلي : المرأة كاحتفال ، البيت ، السماء ، المرأة كادانة ، العزلة . وبين ليلة البداية وليلة النهاية ، تقوم الفروقات في الرحلة ، في الاشارة المستمرة إلى طريق أو انتقال يحقق الشاعر من خلاله العبور من الرواق الرطب والكثيب ، إلى التواصل . وعلى امتداد ابيات الشعر الثلاثمئة التي يجتازها نيرودا فإنه يجرب أيضاً قفزات تقنية لا وجود لها بين كتاب هذه المرحلة (تركيب بحور شعرية ، توليف اوزان شعرية بيضاء بأوزان مرسله ، ثقة بالتداعي العفوي ، قيود صوتية) ، ولكنه يقع بعد سنوات تحت بساطة التركيب الظاهرية في كتبه الكبرى .

ومع ذلك ، فإن الصمت النسبي الذي أحاط ، في ذلك الحين ، بمحاولة الانسان لا يمكن أن يكون قد اثقل كثيراً على كاهليه ، خصوصاً وأن لديه - وهو لم يكمل يتم سنواته العشرين - كتابين ناجحين صيتهما في تعاضم . أولهما غسقيات ، وكان قد بدأه في تيموكو سنة ١٩٢٠ ، وأنهى في ستيياغو ١٩٢٣ ، العام الذي صدرت فيه طبعته الأساسية . ومن بين الخمسين قصيدة التي تؤلف الديوان ، هناك عدد من القصائد التي انهكت انطولوجيات الشعر الناطق بالاسبانية لكثرة ما أعيد نشرها طوال نصف القرن الأخير .

ولا بد أنه من الصعب الحديث هكذا عن أول كتاب لمؤلف خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار أن مؤلفه نظم معظم قصائده وهو ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمره . وما هو جدير بالذكر ، إذا اتفقنا أن عاطفة الكتاب هي عاطفة مراهقة - مع أنها ليست كذلك دائماً - فإن براعته الشكلية وغنائته العميقة لا تبدوان متميتين مطلقاً لهذه المرحلة الحياتية المزعزعة . فقصائد مثل : « السمراء ، المقبلة » ، أو « القلعة الملعونة » (مع ملاحظة تمثله الواضح لروين داريو) ، أو « فارويل » (« من اعماقك ، وجائئاً / ثمة طفل حزين ، مثلي ، يتطلع إلينا . ») ، أو « حب » أو « أيتها المرأة ، لم تعطني شيئاً » أو « الشعب » ، قد استنسخها آلاف المرات مراهقون يجهلون دون شك أن كاتبها هو طفل آخر رائع عجيب .

لكن قمة هذه المرحلة - كعمل لا نقاش في براعته بين جنسه - تأتي لنيرودا عام ١٩٢٤ ، مع نشر « عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة » . إن جميع النظريات التي يمكننا تصورها - بدءاً من الاتهامات بالسرقه وحتى أكثر القصص غرابة حول اللقطة العرضية - انهارت على هذا الكتاب (وهو دون شك أكثر الكتب حظاً ، فيما يتعلق بعلاقته بالجمهور ، بين جميع الكتب التي كتبت بلغتنا الأسبانية) . للانتقاص أو للغمز من نجاحه المدهل : ففي عام ١٩٦١ تجاوز عدد نسخ الكتاب المليون نسخة - هذا دون اعتبار طبعات « القرصنة » العديدة - ، وفي الوقت الحالي تجاوز العدد المليون ونصف المليون نسخة - باللغة الأسبانية فقط - ، وما زالت تصدر من الكتاب الطبعة تلو الأخرى بجميع لغات الأرض تقريباً . من المستحيل التوصل إلى

مفاتيح هذه الظاهرة التي لا شبيه لها في التوزيع ، لكن ما هو مؤكد أن الدسائس التي حيكت حوله قد انزاحت خلال نصف قرن من الحماسة العالمية ، وهو برهان يتحطم أمامه كل جدال .

بالنسبة لذوقي ، فإن هذا الكتاب بعيد عن أن يكون أفضل مؤلفات نيرودا ، ولكني لا أستطيع العودة لتصفحة إلا وأعترف باتقانه الذي لم يسبق إليه على صعيد الشكل ، مضافاً إليه بساطة وشفافية تجعلانه شبيهاً بمسيل مائي : إنه واحد من هذه الكتب الشعرية النادرة التي لا يتعثر فيها الوزن والايقاع ولولمة واحدة ، حتى يمكن للمرء أن يقرأ مجموع صفحاته وكأنها أغنية واحدة .

ومع أن هذا الكتاب لم يكن أفضل كتب نيرودا فإنه ، على أية حال ، المفتاح الذي فتح أمامه فعالية الأوزان الشعرية ، والاقطار التي تصدح في مسامع العالم من الأزمنة السحيقة ، عندما كان الشعر شفهيًا ، وكان لا بد للكلمة ، حتى لا تندثر ، من موسيقى تمنحها الحياة . هذا النهج سيصبح مفتاحاً مميزاً للشعر النيرودي اعتباراً من النشيد الشامل : ولكنه سيحتاج لآلام طويلة ولهاويات اقامة في الأرض حتى يتدفق دوغماً عواثق ؛ كنهر ، كريح ، أو كنمو شجرة : كظاهرة جيولوجية متصالحة في آخر الأمر مع الطبيعة .

اقامة في الأرض

(١٩٢٥ - ١٩٣٥)

« ويحدث أن أتعب من كوني بشراً ».

بدأت قصائد « اقامة في الأرض » في سبتيأغو حوالي عام ١٩٢٥ ، ونظمت في غالبيتها خلال سنوات الشاعر القنصلية في الشرق ، ورأت النور في طبعة فاخرة محدودة بمئة نسخة عام ١٩٣٣ . كانت المجموعة مؤلفة من / ٢٨ / قصيدة وخمسة نصوص نثرية ، ثم توسعت باضافة جزء ثانٍ إليها ، وطبع الكتاب في طبعته العامة والنهائية في مدريد عام ١٩٣٥ : إنها جزآن صغيران ، لا يتجاوز مجموع قصائدهما الخمسين قصيدة إلا قليلاً . إن هذا العدد (خمسون قصيدة في عشر سنوات) يبدو ضئيلاً إذا ما قورن بغزارة انتاج نيرودا قبل وبعد هذه المرحلة من شعره والمتمثلة بإقامة . وليس هذا مصادفة على كل حال ، فبعد دفق اللهو والشعر في المراهقة ،

وقبل حرب اسبانيا ، التي ستترك أثارها إلى الأبد في نتاجه وطريقة حياته ، كانت هذه السنوات العشر الحاسمة في حياة الشاعر ، ما بين العشرين والثلاثين من عمره ، وربما هي المرحلة الأكثر غنى في حياته من الناحية الوجدانية .

بعد أن قرر تكريس نفسه جسداً وروحاً للأدب ، نصب نيرودا شباكه - بمعايير متقنة - باتجاه الحصول على منصب دبلوماسي . وقد أعطى انتظاره الطويل المسلي - كما يروي لنا في مذكراته - نتائج في أواسط عام ١٩٢٧ ، عندما حصل أخيراً على تعيين كقنصل فخري في رانغون (بيرمانيا) ، التي توجه إليها في شهر حزيران (يونيو) من العام نفسه ، ماراً لأول مرة في حياته بمديرد وباريس ، وهما المدينتان اللتان سيصبح لهما شأن كبير في مستقبله .

خلال السنوات الخمس التي أمضاها في آسيا ، وصل مزاج الشاعر المتقلب والسوداوية التي سيطرت على مؤلفات شبابه إلى مداها الأقصى : سيجرب الحب ، الكتابة ، الملل ، العزلة ؛ وستتواتر في شعره بكرة - انعكاساً شفافاً لحياته ، كالعادة - مناطق بداءات كان تصورهما مستحيلاً إذا ما قورنت بنتاجه السابق ، وهو لن يعود لطرقها في المستقبل . ومن خلال تجربته الحياتية ، يظهر إقامة في الأرض ، هذا الكتاب الفريد في المسيرة النيرودية ، والذي لا يمكن فهمه دون التعرف على المشهد الحياتي الذي رافق مخاضه .

بدأ بكتابه في بيرمانيا ، وتنقل معه خلال خمس سنوات عبر سيلان ، والهند ، وجاوة ، وسنغافورة ؛ وتضمن الحب العنيف الساطع الذي ربطه بخوسيه بليس ، وزواجه تحت وطأة الملل

والوحدة من امرأة لم يحبها أبداً ؛ ومغامراته الجنسية العابرة مع فتيات كولومبو، ومراسلته الكثيرة مع الروائي الأرجنتيني هيكتر ياندي ؛ وحنينه لتشيلى ، وحاجته المادية ، وبأسه من نشر المادة التي نظمها .

خوسيه بليس - وهي امرأة بيرمانية جميلة وعاطفية ، غيرة مثل زناد سلاح حساس - برزت في حياة نيرودا كتجسيد مادي لكل شعره في الحب ، أغرقته ، خنقته ، شهدت احلامه وهي تحمل بيدها سكيناً حادة ، وتقف مستعدة لقتله في أية لحظة ، أمام أي ارتياب يراودها بفقدانه . وعندما نُقل الشاعر من رانغون إلى سيلان ، لحقت به وأقامت في البيت المقابل لبيته ، حيث راحت تراقب زياراته وتعتدي على النساء اللواتي يقربنه . أخيراً ، تطردها الشرطة الاستعمارية من الجزيرة لسوء سلوكها المتواصل : لقد ارتاح نيرودا منها بطريقة ما ، ولكنه تأثر في اعماقه من تلك العاطفة العاصفة ، ولم يتمكن من نسيان حبيبته ولا الوداع المؤثر بينهما :

كما في طقس من الطقوس الدينية كانت تقبل ذراعيّ ،
بدلتي ، ثم نزلت فجأة حتى حدائي ، دون أن أستطيع منع
ذلك . وعندما نهضت من جديد ، كان وجهها مغبراً ملطخاً
بطلاء حدائي الأبيض . لم أستطع أن أقول لها أن تتخلى عن
الرحلة ، وأن تغادر معي الباخرة التي ستحملها بعيداً عني إلى
الأبد . لقد منعتي العقل عن ذلك ، ولكن قلبي أصيب هناك
بندب لم يلتئم بعد . ذلك الألم المضطرب ، وتلك الدموع
الرهيبية المنحدرة على الوجه المغبر بالبياض ، ما زالتا راسخين
في ذاكرتي .

وسيكرس لها قصيدتين في إقامة (القصيدة التي تحمل اسمها ،
والقصيدة الشهيرة التي بعنوان « تانغو الارمل ») ، ثم قصيدتين
اخرين - بعد اربعين سنة - في كتاب ذكريات ايسلا نفرا ، تعتبر
احدهما أجمل حسرة حب في هذا الكتاب المليء بالحب .

ماذا جرى للغاضبة ؟
كانت حرباً
تحرق المدينة المقدسة
التي اغرقتها ،
لم يخرج التهديد المكتوب
أو الشباب الاثري ، مرة أخرى ،
بحثاً عني ، لمطاردي
كما كان يخرج منذ عدة أيام ، هناك بعيداً .
كما كان يخرج منذ عدة ساعات ،
الساعات التي كوّنت ، ساعة بعد ساعة ،
الزمن والنسيان
الذي ربما صار اسمه موتاً ،
والموت : كلمة مشؤومة ، أرض سوداء
فيها ترقد خوسيه بليس
نَزْرة
ومضيفة إلى سنواتي النائية
تجعيدة بعد تجعيدة ، حلّت في وجهها ،
لأنها عبر العالم كانت تنتظرنني ،

ولم أصل إليها أبداً ،
ربما ، بسبب آلامي ،
ولكن ربما في الكأس الفارغ ،
في صالة الطعام الميتة
كانت تستهلك صمتي ،
أو خطواتي البعيدة ،
ربما رأني إلى أن ماتت
كما لو كنت وراء الماء ،
كما لو كنت اسبح كشيء بلوري .
ويحركاتها المشوشة ،
لا تقدر على امساكي
فتفقدني

كل يوم ، في البحيرة الشاحبة
حيث بقيت نظراتها معلقة .
إلى أن أغمضت عينيها

- متى ؟

إلى أن طواها الزمن والموت

- متى ؟

إلى أن حملها الحقد والحب

- متى ؟

إلى أن لم تعد تلك التي احببني بغضب ،

بدم ، بئار ،

بياسمين ،

لم تعد قادرة على متابعة الكلام لوحدها ،
وهي ساهمة في بحيرة غياي .

ربما هي الآن
تستريح أو لا تستريح
في مقبرة رانغون الكبرى .
أو ربما على ضفة
نهر « يراوادي » احرقوا جسدها
طوال ظهيرة ، بينما النهر يهمس
ما قلته لها باكياً .

اختفت خوسيه بليس من حياته ، وأحس نيرودا بأنه يغرق في
العزلة المدارية المنوثة : لا ترافقه سوى النُمة - كبريا ، التي
سيفقدوها بعد فترة قصيرة - ، ومرافقه الادمي الوحيد هو الصبي
برامي ، الذي « كان يبدو وكأنه نسي اللغة » . وكان قليل الميل نحو
الانكليز الذين « يلبسون السموكنغ كل ليلة » ، وأقل من ميله نحو
هؤلاء كان ميله نحو المثّرين الهنود ، فاختر نيرودا الوحدة في حي
« ويلواذا » البعيد ، حيث استأجر بيت (بنغل) إلى جانب البحر .
وستأخر طويلاً « أياماً وسنوات » ، ليقم اتصالاً مع كائنات تلك
المناطق . ول هذه الفترة ترجع رسائله الأولى إلى صديقه بالمراسلة
هيكثور ياندي ، وهي الرسائل التي نشرتها لأول مرة مرغريتا
اغبيري ، والتي سأقتطف منها بعض المقاطع التي تبدو لي مهمة من
أجل صورة شعاعية للفترة الزمنية التي كتب بها إقامة في الأرض .

١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ .

... الآن ، ونحن نستعد لهول المستعمرات المهمة ،
فلنتناول أول « ويسكي أند صودا » على شرفك أيها الصديق
الطيب ياندي . الشراب بوحشية ، الحر ، الحميات ،
المرضى ، والمخمورون في جميع الانحاء (...) أما أنا
فالنعاس ، والاجهاد ، والقيظ تقرضني . لن أكتب أية
رسائل ، ولا أية أشعار أخرى ، ففي قلبي دخان (...) في
التي تبعث بها إليّ ، ثمة فوران كثير ، حياة كثيرة ولكن القمم
قليلة (...) أنا لا أجد في حياتي أو فيما حولي أموراً نقية
بالكامل وقادرة على جذبي . وبينما أنا أحاول الانتقاء ، أشعر
بأن الوقت يمضي . يا للرب !

١١ أيار (مايو) ١٩٢٨ .

... أريد الخروج الآن من حالة روحية بائسة حقاً (...)
فيما كنت أتقدم بحياتي ، كنت أجعل عملي الأدبي أصعب
فأصعب ، فرحت أرفض وادفن أشياء كانت محبة لي كثيراً
من قبل ، إلى أن أصبحت أمضي وقتي في اهتمامات فقيرة ،
وافكار ضحلة ، متأثراً بهذه المخارج الفجائية ، ومستبدلاً
مضمونها ببطء شديد (...) أن قدرة شعرية عنيفة ما زالت
في داخلي ، وهي تقودني شيئاً فشيئاً نحو طريق صعب المنال ،
بحيث أتي أنجز اعمالي في اغلب الاحيان بعد معاناة شديدة ،
مدفوعاً بحاجتي لاحتلال موقع بعيد بعض الشيء بقواي التي
هي بكل تأكيد قوى ضعيفة جداً .

٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨ .

... ولكن ، حقاً ، ألا تجد نفسك محاطاً بالدمار ، بالموت ،
بأشياء بائدة ؟ ألا تشعر بأنك تصطدم في عملك بصعوبات
ومستحيلات ؟ أليس كذلك ؟ حسناً ، لقد قررت أن اصنع
نفسي من هذا الخطر ، وأن استخلص النفع من هذا
النضال ، وأن استخدم هذا الضعف (...) لقد انهيت
تقريباً ديوان اشعار بعنوان : اقامة في الأرض ، وسترى كيف
استطيع أن أعزل اسلوبي ، واجعله يتذبذب بانتظام ما بين
المخاطر ، وسترى بأي مضمون متين منسق وبأي اصرار
أكون هذه القوة المتجانسة .

٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٩ .

... لقد ظننت بأي عاجز عن التعبير القادر على التواصل ،
واحطت نفسي بجو من السرية ، انني اقاسي كمداً حقيقياً
لأقول شيئاً ، حتى ولو كان ذلك لنفسي ، يبدو لي وكأنه لا
وجود لكلمة واحدة تمثلني ، وأنا أقاسي الكثير من هذا
الامر . أجد جميع عباراتي مبتدلة ، منفصلة عن كياني
(...) انني وحيد؛ كل عشر دقائق يأتي خادمي
رائسي ، يأتي كل عشر دقائق ليملأ كأسي . أشعر
بأي قلق ، منفي ، محتضر (...) ياندي : لا أحد أكثر
وحدة مني . انني التقط كلاباً من الشوارع ، لتعيش معي ،
ولكن هذه الحيوانات الملعونة تتخل عني بعد وقت (...)
إن اقامة في الأرض هو كومة كبيرة من أبيات الشعر ذات
الرتابة العظيمة ، إنها أشعار طقوسية تقريباً ، فيها سحر خفي

ومعاناة كما كان يفعل الشعراء القدماء . إنها شيء شديد
التناسق ، كشيء واحد مكرور ، كتمرين أبدي على شيء بلا
نعجاج .

٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩ .

... إننا معشر القناصل الذين من مرتبتي - قناصل الشرف -
نحصل على مرتب بائس .. أدنى راتب لموظفي الوزارة .
وقلة النقود جعلتني اعاني البؤس حتى الآن ، وحتى هذه
اللحظة أعيش مليئاً بتناقضات غير شريفة . لدي ١٦٦ دولاراً
اميركياً في الشهر ، وهذا الراتب يحصل عليه هنا عامل من
الدرجة الثالثة في دكان عطار . والأسوأ من ذلك ، ان استلام
هذا الراتب يعتمد على المداخل التي تتراكم في القنصلية ،
هذا يعني أنه إذا لم تكن ثمة صادرات إلى تشيلي في أحد
الشهور فلن يكون هنالك راتب لي . إن هذا كله في الحقيقة
مؤلم ومهين . ففي برمانيا كنت امضي أحياناً خمسة شهور بلا
مرتب ، وهذا يعني بلا أي شيء . وما هو أسوأ ، ان جميع
النفقات الضرورية ، كالطاوله ، والمفروشات ،
والتصاريح ، وإيجار المكتب عليّ أن ادفعها أنا (...)
اعذرني على هذه التفاصيل المشؤومة ، التي تشكل الحقيقة
والقلق اليومي . ربما ، لو كان لي راتب كامل وثابت - أي لو
انه كانت لديّ ضمانات باستلامه في نهاية كل شهر -، لما
كنت اهتم بقضاء حياتي في أي مكان ، بارداً كان أو حاراً .
أجل ، فأنا الذي كنت أنظر دائماً للحياة اللامسؤولية والحركة

سواء بالنسبة لحياتي أو لحياة الآخرين ، أشعر الآن برغبة كثيفة للاستقرار ، للثبات على شيء ، للحياة أو الموت بهدوء . أريد الزواج أيضاً ، ويسرعة ، غداً بالذات ، وأن أحيأ في مدينة كبرى . إنها رغباتي الملحة ، وربما لن أستطيع تحقيقها أبداً .

٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩ .

... كنت أفكر بديوان قصائدي الجديدة ، هل هو ممكن ما قلته لي من أنهم في بوينس ايرس يدفعون شيئاً ما مقابل نشره ؟ ربما إنك تبالغ بهذا ، فهو يبدو لي غريباً (...) لقد استغرقت خمس سنوات في كتابة هذه الأشعار ، وكما ترى ، فهي قصائد قليلة جداً ، تسع عشرة فقط ، ومع ذلك ، فإنه يبدو لي أن كل عبارة من عباراتي مشربة بذاتي ، بل هي تقطر من ذاتي .

٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩

... على الشاعر ألا يكرر نفسه ، فهو متتدب لأمر كبير ألا وهو النفاذ إلى الحياة وجعلها نبوءة : على الشاعر أن يكون خرافة ، كائنأ اسطورياً (...) فما هو الهدف من الشعر إذا لم يكن عزاء وباعثأ للاحلام ؟ (...) وهذا ما أريد تحقيقه : قصيدة شاعرية ، فمن فضولي العلمي ، ومن اعجابي بالسيارات ، ومن ميلي نحو هذه الطبيعة الغريبة ، لا يبقى سوى الشيء القليل عندما اجلس ، ليلاً ، لأكتب وحيداً ، أمام ورقة . عندها لا أشعر إلا بوجودي

ومخائلي ، وسعاداتي ، وعواطفني الخاصة .

٢٧ شباط (فبراير) ١٩٣٠

... لا أشعر حالياً بشيء أستطيع كتابته ، فكل الأشياء تبدو لي ليست بلا معنى ، وإنما فائضة بالمعاني . أجل ، أشعر بأن جميع الأشياء قد وجدت التعبير عن ذاتها بذاتها ، وبأنني لست جزءاً منها ولا قدرة لي على النفوذ إلى أعماقها .

وسط هذه الفاقة ، ومن هذه الشاعرية - وهي لا علاقة لها بالشاعرية المدروسة التي سيتحدث عنها بعد عشرين سنة في رسالته إلى كاردينا بينيا - ، شيد نيرودا الهندسة « الرتيبة » لأقامته التي بها « سحر خفي ومعاناة كما كان يفعل الشعراء القدماء » وفيها أيضاً شهوانية ، وتراخ ، وتأمل ، وخدر .

خلال الفترة الأخيرة لوجوده في سيلان ، يتمكن الشاعر من تحطيم حصار العزلة . ومع أنه لا يقيم علاقات عميقة ، فإنه يستسلم إلى ترف صحي ومعقول .

الحقيقة هي أن الوحدة التي كنت أشعر بها في كولومبو لم تكن ثقيلة فحسب ، وإنما كانت نوعاً من السبات . كان لي عدد قليل جداً من الاصدقاء في الشارع الذي كنت أسكن فيه . كانت تمر بسريري ، الذي كأسرة المعسكرات ، صديقات من مختلف الألوان دون أن يخلفن فيه أثراً سوى البريق الجسدي . لقد كان جسدي محرقاً متوحدة . كانت صديقتي « باسقي » نحيباً على الدوام ، مع بعض صديقاتها : صبايا سمرات

ومذهبات ، يجري في عروقهن دم بويري ، دم انكليزي ،
ومما قسم الله ، كنّ جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي
وغير مصلحي .

وفيا هو في هذه الحالة المعنوية ، فوجيء في اواسط عام ١٩٣٠
بتعيينه ، وبالتالي انتقاله ، كقنصل لتشيلي في سنغافورة وبنافيا
(جاوة) : وفي هذه المدينة الأخيرة انهى ديوانه اقامة في الأرض
(الذي سيصبح في طبعته النهائية الاقامة الأولى) ، ويتزوج من ماريا
انطونيا هاغينار ، « إنها من أصل كريولي » ، ومن الأفضل القول إنها
هولندية مع بضع قطرات من دم ملاوي ، أنني جد معجب بها .
إنه زواج بقليل من الحب أو بلا حب ، تحقّق كمبادرة أمام الملل
والوحدة ، ومع ذلك فإن العلاقة من « ماروكا » - كما كان يسميها
الشاعر - تنفرد ببعض الخصائص : فهي الوحيدة من بين زوجاته
التي ستمنحه طفلاً (مالفيا مارينا : طفلة عليلة منذ ولادتها ، ماتت
فيما بعد في اوروبا قبل أن تتم الثامنة من عمرها) ، وهي الوحيدة
أيضاً التي سيتجاهلها تماماً وبشكل منهجي في اعماله ومذكراته .
وتؤكد مرغريتا اغييري بأنه لم يكرس لها أية قصيدة على الاطلاق ،
حتى ولا في الفترة التي عاشاها معاً ، ولكن ما هو أكثر إثارة للغربة
إنه لم يتعرض لمجرد ذكرها في فصول السير الذاتية العديدة التي كتبها
(ابتداء بـ « أنا هذا » في التشيد الشامل وحتى ذكريات إيسلانغرا)
حيث توجد استحضارات رقيقة لغرامياته في الطفولة والمراهقة . إن
هذا التجاهل ، بل هذا الازدراء ، يبلغ أوجه في اعترافه بأن قد
عشت ، حيث يكرس لها سطرين مقتضيين قبل أن يعطي الكلام

لمرغريتا اغييري . وحتى هذا الاستحضار المختصر ، يبدو وكأن كاتبه شخص محيد . أما في رسائله إلى هيكتور ياندي- وهي رسائل حميمة كما رأينا في مناسبة سابقة - فقد بقي لنا القليل من الوصف العاطفي للأيام الأولى التي أمضاها الزوجان ، ولندع الرسائل نفسها تتكلم :

زوجتي هولندية ، ونحن نعيش معاً بكل جوارحنا ، وبكامل السعادة في بيت أصغر من كُستبان . أنا أقرأ ، وهي تخطط . إن الحياة القنصلية ، والبروتوكول ، والمآدب ، والسموكنغ ، وأوشحة التشریفات ، والبدلات الرسمية ، وحفلات الرقص ، والكوكتيل التي تأخذ وقتنا ، ما هي إلاّ جحيم . البيت هو الملجأ ، ولكن القراصنة يحيطون بنا . نكسر الركود ونهرب بالسيارة ، حاملين معنا « ترمس » كونياك وكتباً ، وننطلق إلى الجبال أو الشاطئ . نستلقي على الرمال ، وعيوننا ترمق الجزيرة السوداء ، سومطرة ، ويركان « كراكاتو » الذي يندفع من قاع البحر . نأكل الشطائر ، ثم نعود . لا أكتب شيئاً . أقرأ بروست كاملاً للمرة الرابعة . إنه يثير إعجابي أكثر من السابق . لقد اكتشفت رساماً سورريالياً ، ونحن نخرج معه لتناول الطعام في المطاعم الصينية ، ونحتسي البيرة معاً . حتى أكثر الأمور غرابة وأكثرها حميمة تتحول إلى روتين . فكل يوم هو مثل غيره في هذه البلاد .

على كل حال ، عاد نيرودا إلى تشيلي عام ١٩٣٢ وبرفقته ماروكا ، بعد غياب دام خمس سنوات في المدارات الشرقية . إن

وضعه المهني - كما يُفهم من الفقرة المذكورة اعلاه - قد تحسن بشكل ملموس : فبعد أن أنهى « فترة الخطوبة » في السلك الدبلوماسي ، حولته مهمته الأخيرة في سغافورة أن ينتقل إلى حياة أقل اضطراباً مما مر به حتى ذلك الحين . وخلال السنة التي امضاها في سستياغو ، بعد عودته إليها ، توالى طبعات كتبه : فقد صحح ورتب ديوان « عشرون قصيدة حب . . . » بشكله النهائي ، وصدر في طبعتين في كل من تشيلي وبوينس ايرس : وقرر نشر « رامي المقلع المتحمس » - بعد عشر سنوات كاملة تقريباً من كتابته - ، ثم صدرت الطبعة الأولى من اقامة في الأرض . وبهذا المتاع ينتقل إلى بوينس ايرس ريثما يتم تعيينه كقنصل هناك ، في آب (اغسطس) ١٩٣٣ . ويبقى في مهمته في العاصمة الأرجنتينية أقل من سنة . ولكن حياته تأخذ بالتحول هناك ، كمقدمة للفترة العظيمة والحاسمة التي سيحيها في اسبانيا . فمثقفو بوينس ايرس يستقبلونه بالود والتقدير ، ويقتحم نيرودا للمرة الأولى عالم النجاح الذي لن يفارقه بعدها . وتبتعد الأيام البوهيمية التي عاشها في سستياغو وكذلك أيام الكتابة المدارية ، ويتأكد الشاعر من وجهة مصيره ووحدته . ويصبح اوليفيرو خيروندو ، وكونرادو نالي روسلو ، ونورا لانجي ، وبابلو روخاس باز ، وريكاردو موليناري ، وراؤول غونثالث تونبون ، وامبارو موم ، هم الذين يشكلون دائرة اصدقائه المقربين ، فيحيا حياة بوهيمية مزينة بأناس موهوبين لا يخلون من قمة عبقرية - كما هو حال خيروندو- . وفي يوم ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) يتعرف في بيت روخاس باز على فيدريكو غارسيا لوركا ، الذي كان يومها يقوم بجولة مظفرة في اميركا . وبعد تعيينه قنصلاً في برشلونة ، يبحر

نيرودا أخيراً إلى اسبانيا ، في الخامس من أيار (مايو) ١٩٣٤ ، برفقة ماروكا وهي حامل في شهرها الرابع . وخلال السنتين التاليتين لعودته من الشرق والسنة الأولى التي امضاها في اسبانيا ، يكتب قصائد الاقامة الثانية ، وهو الديوان الذي ظهرت طبعته الكاملة في مدريد في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ .

الحرب الأهلية الاسبانية تلوح في الأفق ، ومرحلة زخمة لا تتكرر ، تكاد تتبلور لتتحكم بشاعرية نيرودا .

* * *

ومع الصفحة الأخيرة من الاقامة الثانية تنتهي مرحلة لن تتكرر من الشعر النيرودي ، إذ ان الاقامة الثالثة (١٩٣٥ - ١٩٤٥) ، كما سنرى ، هو ديوان خالٍ من الوحدة . وكثمرة باهرة لنضوج هذه الشاعرية الخلاقة الجديدة سيظهر بعد خمس عشرة سنة النشيد الشامل .

ولكن الانتقال من مفهوم عدد للعالم ولحياته بالذات إلى مفهوم آخر ، لا بد وأنه بالنسبة لنيرودا كان شيئاً أكثر من مجرد خمسة عشر عاماً من حياته ، إنها رحلات ، نضالات ، محاضرات حاشدة ، علاقات غرامية ، نضال في السرية ، انعكاسات على الورق للنشيد في تاريخ العالم ، للشاعر كخازن لذاكرة البشر .

و- كضوء مركزي وحاسم - استقرت اسبانيا في قلبه .

اسبانيا في القلب

(١٩٣٤ - ١٩٣٩)

« ستسألون لماذا لا تحدثنا أشعاره
عن حلم الأوراق ،
عن البراكين العظيمة في موطن ميلاده ؟
تعالوا انظروا الدم في الشوارع » .

في كتابها « حيوات بابلو نيرودا » تروي مرغريتا اغييري عن
اقتحام الشاعر لشبه الجزيرة (اسبانيا) هكذا : يقول رافائيل ألبيرتي
أنه بعد عدة سنوات من المراسلة مع بابلو نيرودا ، وفي يوم طيب
من أيام حزيران (يونيو) ١٩٣٤ - « في وقت لم أكن انتظره فيه ولم
أكن أعرف شيئاً عنه منذ زمن » صعد نيرودا راكضاً ادراج بيته ،
وقال له :

- أنا بابلو نيرودا . لقد وصلت للتو وحضرت لمصافحتك - ثم
يتابع قائلاً - إن زوجتي تحت ، لا تفزع ولكنها عملاقة تقريباً .
هكذا وصل نيرودا إلى اسبانيا ، صاعداً بخطوات واسعة . .
سعيداً ومتدفقاً .

إن الشاعر المبعوث كقنصل إلى برشلونة ، اتى مصمماً على الإقامة في مدريد ، حتى انه استأجر بيتاً في حي ارغويس بعد أقل من شهر من وصوله إلى اسبانيا . وفي مدريد أيضاً ستولد ابنته يوم ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) من هذا العام ، وفي جامعة المدينة سيقدمه غارسيا لوركا رسمياً في اوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) . وبعد ذلك بشهرين يتمكن من الحصول على أمر بنقله كقنصل إلى العاصمة الاسبانية بدلاً من برشلونة ، محققاً بذلك حلمه .

كانت حياته الزوجية من ماروكا هاغينار تمضي من سبىء إلى أسوأ في عام ١٩٣٤ ، وهو عام حافل بعلاقات الشاعر الغرامية ؛ وقد كرس لعلاقتين منها كتابه الغضبات والمشقات ، الذي كتبه في ذلك الحين ولكنه لم ينشره إلا بعد مرور خمس سنوات ، عند عودته إلى تشيلي . وفي حفل أقيم في بيت مورلا لينيتش تعرف على ديليا دل كاريل - التي ستصبح زوجته خلال الحقبة التالية ، وكانت واحداً من حبين كبيرين في حياته - فتهدأ عاصفته الغرامية . في الوقت ذاته كانت شعبيته في تصاعد ، وخصوصاً منذ التكريم الذي قدمه إليه شعراء اسبانيا بعد أقل من سنة على قدومه ؛ ففي نيسان (ابريل) ١٩٣٥ نشر ديوان اقامة في الأرض ، مع مقدمة لاهبة وقع عليها كل من : البيرتي ، الكسندري ، ثيرنودا ، خيراردو ديينغو ، ليون فيليب ، غارسيا لوركا ، خورخي غيين ، بيدرو سائيناس ، وميغيل هيرناندث ، بالإضافة إلى آخرين . وما قالوه في تلك المقدمة : لقد بعثت تشيلي إلى اسبانيا بالشاعر الكبير بابلو نيرودا ، الذي ينتج بقدرته الخلاقة الجليلة ؛ وبتملكه الكامل لزمان قدره الشعري ،

أعمالاً تعتبر مثلاً يحتذى، من أجل شرف اللغة القشتالية . بعد خمس سنوات من رسالته إلى ياندي - التي طالب فيها بمكان هادىء ، وزواج برجوازي ، ومرتب ثابت ، مقنعاً نفسه باستحالة أن يهتم أحد اهتماماً حقيقياً بنشر قصائده - أصبح نيرودا عالماً ، وموضع تقدير ، ومؤثراً في الحياة الأدبية : لدرجة أن أفضل أصوات اسبانيا الشعرية يكلفونه برئاسة تحرير مجلة الحصان الأخضر للشعر ، ويحتل ديوانه إقامة في الأرض مكانة مرموقة وسط اجماع من الثناء عليه . بل إن القدر يحالفه ليجعل الشاعر ميغيل هيرنانديث في عداد تلاميذه ، وهو أعمق واسطع الشعراء الاسبان في هذا القرن . مما دفع مرافقته وكاتبة سيرته إلى القول : إنه النصر الأدبي العظيم . وروين داريو فقط هو الذي احرز صدى كهذا في اسبانيا . إن مدريد احتفال ، والشاعر يحياه ملء يديه .

أنا وفيدريكو والبيرتي الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي ، في ملحق يطل على دغل ، البيت الذي كان يسمى « الدغل الضائع » ، ومعنا النحات البيرتو ، وهو خباز من طليطلة كان اذ ذاك معلماً للنحت التجريدي ، والتولاغيري ، وبيرغامين والشاعر العظيم لويس ثرنودا ، وفيشتي الكسندري ، شاعر ذو مدى غير محدود ، والمهندس المعماري لويس لاكاسا ، نلتقي يومياً في مجموعة واحدة ، أو في عدة مجموعات ، في البيوت والمقاهي . كنا نغضي من شارع لاكاستيانا أو من مشرب البيرة في شارع البريد حتى نصل بيتي في ارغويس . كنا نهبط من الطابق الثاني لاحدى الحافلات

الكبيرة التي كان يدعوها مواطني العظيم كوتابوس « سيارة الأطفاء » ، نزل في مجموعات صاخبة للأكل والشرب والغناء (. . .) في مدريد تلك ! كنت امضي مع ماروخا مايو ، الرسامة الجليقية ، عبر الاحياء السفلى بحثاً عن المحلات التي تباع الحصر والحلفاء ، بحثاً عن ازقة صانعي البراميل والحبال ، وكل مواد اسبانيا الصلبة ، المواد التي تفتل قلبها وتجذله .

وصل نجم نيرودا في اسبانيا إلى أوجه في اواسط عام ١٩٣٦ ؛ ومنذ هذا التاريخ ، اتخذت الأمور اتجاهاً آخر ، مختلفاً بالنسبة للجميع .

بقي العدد السادس من « الحصان الأخضر » في شارع بيرياتو دون ترتيب ولا تخطيط . كان عدداً مكرساً للشاعر خوليو هيريرا أي ريسينغ - لوتريامونت الثاني لمونفيسديو- . والنصوص التي كتبها الشعراء الاسبان تكريماً له ، بقيت راقدة هناك بجمالها دون حَبَل ولا ولادة . كان المفروض أن تظهر المجلة في اليوم التاسع عشر من تموز (يوليو) ١٩٣٦ ، لكن الشارع امتلأ بالبارود في ذلك اليوم . جنرال مجهول ، يدعى فرانثيسكو فرانكو قد تمرد على الجمهورية في محميته بافريقيا .

قبل ذلك بثلاثة أيام ، كان فيدريكو غارسيا لوركا قد سافر إلى موطن ميلاده ، إلى غرناطة ، في الرحلة التي ستكون رحلته

الأخيرة . ويتذكر نيرودا بانها اتفقا على حضور استعراض يؤديه مسخان غريبان ملقبان بـ « ساكن الكهوف المقتنع » و « خناق الحبشة » .

تخلف فيدريكو عن الموعد . كان قد راح ليلقي حثفه . لم نر بعضنا بعدها أبداً . موعدة كان مع خناقين آخرين . وهكذا ، فإن حرب اسبانيا ، التي غيّرت مسار شعري ، بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر .

إن اغتيال فيدريكو ثم اعتقال ميغيل هيرنانديث وموته في المعتقل - وهما الشاعران اللذان جمعتهم بهما اواصر ود شديدة - يعتبران حدثين من أكبر الأحداث المؤلة في حياة نيرودا ، وهولن يتوقف عن ذكرهما والتحدث عن صداقته لهما عبر جميع الكتب التي اصدرها منذ ذلك الحين . ولكن يجب علينا ألا نبحث في هذه المؤثرات والأسباب الشخصية عن التغيير العملاق في الشعر النيرودي ؛ فمنذ عام ١٩٣٤ - إبان موجة القمع الوحشية ضد عمال المناجم في استورياس - كان قد بدأ يميل بمشاعره نحو القضايا الشعبية ، ويبدأ بالحدث سريعا في حصانه الاخضر ، عن « شعر بلا نقاء » . وفي اوائل عام ١٩٣٦ ، هاجمت عصابات فاشية ودمرت بيت رافائيل البيري ، الذي كان يقوم بجولة في اميركا - مبعوثا من جمعية الاسعاف الأحمر - لطلب المساعدات قبل حلول الكارثة الوشيكة . وعندما رجع البيري من جولته ، بعد بدء الحرب الأهلية ، عُيِّن مسؤولا عن مجلة الافرهول الأزرق ، وهي مجلة ادبية موجهة إلى خنادق القتال . وذهب نيرودا لزيارته حاملا معه قصيدته « أغنية إلى

امهات جنود الميليشيا القتلى»، التي ضمها فيما بعد إلى مجموعته
اسبانيا في القلب ، ويمكن التأكيد بأنها كانت قصيدته النضالية
الأولى .

أنا لا أنسى مصابكن ،
أعرف أبناءكن
وإن اكن فخوراً بمماتهم ،
فلإنني أيضاً ، فخور بحياتهم .
ضحكاتهم

كانت تشرق في المصانع الصماء ،
وخطواتهم في « الميترو »
كانت ترن بجانب كل يوم ،
وإلى جوار يرتقال « ليفانتي » ، وشباك الجنوب ،
بجانب حبر المطابع ، وفوق اسمنت الابنية
رأيت قلوبهم تلهب
بالنار والنشاط .

لقد نشر البيروتي هذه القصيدة مغفلة من التوقيع ، حتى لا يضر
بالوضع الدبلوماسي لصديقه . ولكن حيطته كانت هباء : إذ ان
نيرودا قد التزم بكل جوارحه ، وربط مصيره بمصير الجمهورية ،
فقامت حكومة ارتورو اليساندري ، التشيلية المحافظة ، بتنحيته من
منصبه الدبلوماسي .

في هذه الفترة بالذات ينفصل الشاعر عن زوجته ماريا انطونيتا

هاغينار - التي تسافر إلى هولندا برفقة ابنتها - ويعيش مع ديليا دل كاريل . ويسافر إلى فلنسيا ثم إلى باريس ، حيث يصدر - بالتعاون مع نانسي كونارد ، التي يكرس لها صفحات رقيقة ومشرفة في مذكراته - المجلة المناضلة : « شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني » . وفي شباط (فبراير) ١٩٣٧ ، يلقي محاضرته المؤثرة عن غارسيا لوركا وينظم ، مع لويس اراغون الدائم النشاط ، مؤتمر الكتاب المعادين للفاشية ، الذي عقدت جلساته التحضيرية في فلنسيا ، وكان يفترض عقده في مدريد المحاصرة في تلك الأيام . « لم يخرج أبداً من باريس قطار مليء بالكتاب مثل ذلك القطار » ، هكذا يتذكر نيرودا ، مشيراً إلى قافلة المثقفين الخيالية المتوجهة إلى العاصمة الاسبانية في قطار كان في عرباته : ثيسر بايخو ، فيثنتي هو يدوبرو ، اندريه مارلو ، اوكتافيو باث ، رافائيل البيرتي ، تريستان تزارا ، جولين بندا ، راؤول غونثالث تونيون ، وعشرات آخرون من الكتاب الايطاليين ، والانكليز ، والسوفييت بالاضافة إلى نيرودا نفسه واراغون . إن الحرب الاسبانية - وهي دون شك ، الحدث الذي سال له أكبر قدر من الخبر في هذا القرن - قد جمعت حولها ومنذ بدايتها ، عدداً ضخماً من أهم الكتاب .

في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٧ ، يعود نيرودا إلى تشيلي ، حيث ينشر اسبانيا في القلب . إن النجاح الذي لاقاه الكتاب كان نجاحاً صاعقاً ؛ ففي بضعة شهور تنفذ أربع طبعات متتالية منه . وفي خضم القتال في الجبهة الشرقية ، قريباً من « خيرونا » ، ينصب مانويل ألتولاغيري مطبعة ميدان ، وينشر الطبعة المناضلة الشهيرة من اسبانيا في القلب .

لقد تعلم جنود الجبهة كيفية صف حروف الطباعة . ولكن الورق كان ينقصهم حينئذ . وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . فكان ما صنعه خليطاً عجيباً ، بين القنابل المتساقطة ، وسط المعركة . لقد كانوا يقدفون بكل شيء إلى المطحنة بدءاً من راية للعدو وحتى عباءة مدماة لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد الغريبة ، ومع الانعدام التام في الخبرة فقد خرج الورق بديعاً جداً . إن النسخ القليلة التي ما زالت محفوظة من هذا الكتاب تثير الدهشة لحروفها وطابعاتها ذات الصناعة الغريبة . لقد رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في واشنطن ، في مكتبة الكونغرس ، موضوعة وراء واجهة زجاجية كأحد الكتب النادرة جداً في عصرنا .

بعد فترة قصيرة من انجاز هذه الطبعة الخيالية ، بدأ انهيار الجمهورية يتسارع .

مع هذه الطواير الراحلة إلى المنفى كان يمضي الجنود الاحياء من جيش الشرق ، وبينهم مانويل التولاغيري والجنود الذين صنعوا الورق وطبعوا اسبانيا في القلب . إن كتابي هذا كان مفخرة لهؤلاء الرجال الذين عملوا في طباعة اشعاري وهم يتحدثون الموت . عرفت أن كثيرين منهم آثروا حمل أكياس تحتوي النسخ المطبوعة على حمل أغديتهم وملابسهم . والأكياس على اكتافهم انطلقوا بالمسيرة الطويلة نحو فرنسا .

لقد تعرض هذا الطابور الهائل الذي يسير إلى المنفى

لغارات الطائرات مئات من المرات . سقط عدد كبير من الجنود وتبعثرت الكتب في الدروب . وتابع آخرون الهروب الذي لا نهاية له . وهناك وراء الحدود عاملوا الاسبان الذين وصلوا إلى المنفى معاملة جلفة قاسية . وقُدمت النسخ الاخيرة من ذلك الكتاب قرباناً إلى المحرقة ، ذلك الكتاب الملهب الذي ولد ومات في خضم المعركة .

إن اميركا الجنوبية ستصبح بالنسبة للاسبان الملجأ والمأوى الذي رفضت فرنسا منحهم إياه . فقد حركت الارجنتين ، والارغواي ، وتشيلي . . . جميع امكانياتها لاستقبال اللاجئين . وقبل نيرودا الرئيس التشيلي اغيره ثيردا ، الذي انتُخب رئيساً لتوه ، لينقل إليه قلقه حول اسبانيا ، فعينه هذا قنصلاً لشؤون المهاجرين - وهو منصب ابتكره في تلك اللحظة - وجعل مقره في باريس . لقد شرح نيرودا للرئيس اغيره ثيردا بفطنة أن المهمة معقدة ، وإن المهاجرين يعدون بالآلاف . ويحييه الرئيس : - احضر لي اسباناً ، سنوفر متسعاً للجميع . احضر لي صيادين ، احضر لي باسكاويين ، قشتاليين ، اكستريما دورين . . .

بهذا التصريح السخي ، يعود نيرودا إلى اوروبا - بالرغم من أن إحدى ساقيه كانت مغطاة بالجبس ، بعد عملية اجريت له - . ويبقى في باريس منذ آذار (مارس) ١٩٣٩ حتى نهايات ذلك العام ، فيشهد انهيار الجمهورية الاسبانية وبداية الحرب العالمية الثانية . وبعد عمل ذؤوب ، ومواجهة الف صعوبة ، يتمكن أخيراً من استئجار سفينة - الوينينغ - ، التي تصل في أواخر السنة إلى ميناء

بالباريسو في تشيلي ، مزدهة باللاجئين الاسبان . وفي ذكريات
ايسلا نغرا ، يتذكر الشاعر مفخرة ذلك الابهار الحاشد :

سفيتي كانت تنتظر
باسمها الصاحب
« وينبغ »

ملتصقة برصيف الحديقة المشتعلة ،
بالاعناب القديمة الفضة في اوروبا .
ولكن معشري الاسبان لا يأتون
من فرساي ،
من حفلات الرقص المفضضة ،
من سجاجيد الديسم القديمة ،
من الكؤوس التي تزغرد
بالنيذ ،
لا ، ليسوا آتين من هناك ،
لا ، ليسوا من هناك .

ويرجع نيرودا معهم إلى اميركا ، في مفرق الاربعينات :
وسبكون هذا العقد هو العقد الأكثر اميركية في حياة الشاعر ، وفي
نهايته تماماً يرتقي قمة التشيد الشامل .

* * *

في عام ١٩٤٧ ، تنشر دار النشر لوسادا في بوينس ايرس ديوانه
اقامة ثلاثة (١٩٣٥ - ١٩٤٥) ، وهو يضم نتاج نيرودا في الفترة ما

بين اصداره اقامة في الأرض (الجزأين الأول والثاني) والنشيد الشامل . ويشكل انعكاساً اميناً للسنوات التي مرت ما بين هذين الكتابين العظيمين ، فالاقامة الثالثة هو من أقل كتب نيرودا وحدة ، بل إنه مليء بنقاط الضعف فيها يتعلق بمفهومه الشعري للعالم . على الرغم من بعض اللمحات اللامعة - فشاعر كبير لا يمكن له أبداً أن يخطيء بكل شيء ، مهما كان شاذاً - إن الاقامة الثالثة هو كتاب باهت في قسمه الأول (« الغارقة السماوية ») الذي يحاول اقتفاء أثر شقيقه السابقين ، ولكننا نلمس فيه التحضير للشاعر المناضلة والنفس العنيد الذي سيكتمل في النشيد الشامل .

ووسط هذا التردد تظهر قصائد العشق المتشامخ والكلمة العنيفة في ديوان الغضبات والمشقات ، الذي كُتب عام ١٩٣٤ ، ونُشر ككتاب مستقل عام ١٩٣٩ ، لدى عودة الشاعر إلى تشيلي . إنه قصيدة حب وكأبة طويلة ، فالغضبات كتاب معاصر لديوان الاقامة الثانية ، يتنافس من ذات النفس البارع والمحزون الذي تنفست منه قصائد « ليس ثمة نسيان » و « وكينغ ارون » .

بعد كل الشاعرية المتقنة التي مارسها نيرودا في الفترة ما بين العشرين والثلاثين من عمره ، أتت الاقامة الثالثة لتغير بعنف وبحسب من لهجته : إنه الحدث الاسباني .

فكتاب المعركة اسبانيا في القلب - الذي يتبدى بقصيدة مباشرة عنوانها « اجتماع تحت الرايات » - هو اللقاء السافر للشاعر مع احشاء العالم . فهو ما يزال قلقاً في شاعريته الجديدة ، وفي مناسبات قليلة فقط يتمكن من الارتفاع إلى مستوى اعماله السابقة

(« سأشرح بعض الأمور » ، « منظر بعد المعركة ») ولكنه في اغلب القصائد الأخرى يبقى أسير المصق الدعائي (« الجنرال فرانكو إلى الجحيم ») ، أو أنه ينحدر إلى التبسيط التعادلي (في قصيدة « كيف كانت اسبانيا » ينظم ترتيلة من ٥٦ / بيتاً تقتصر على تعداد اسماء أكثر من مئة قرية اسبانية) .

الجزء الخامس والأخير من الإقامة الثالثة كُتب خلال سنوات الحرب العالمية ، وهو شديد الاتصال بتصريح أدلى به الشاعر لصحيفة ال - سيغلو ، الصادرة في سبتمبر أواخر شهر شباط (فبراير) ١٩٤٣ .

إن كل ابداع لا يوظف لخدمة الحرية في أيام التهديد الشامل هذه ، ما هو إلا خيانة . فكل كتاب يجب أن يكون رصاصة ضد المحور ، وكل لوحة يجب أن تكون دعاية ؛ وكل بحث علمي يجب أن يكون أداة وسلاحاً للنصر .

النشيد الشامل

(١٩٣٨ - ١٩٥٠)

« اصعد معي ، أيها الحب الاميركي » .

ليس النشيد الشامل هو أكثر أعمال نيرودا شمولاً وطموحاً فقط ، بل ، ربما هو ، أكبر عمل منهجي في تاريخ الشعر الناطق بالاسبانية . فقد كُتبت صفحاته على امتداد أكثر من عشر سنوات ، وهي موزعة في خمسة عشر فصلاً مقسمة إلى ٢٤٩ نشيداً ، وبمجموع أبيات الكتاب يتجاوز الثلاثة عشر ألف بيت من الشعر .

كانت فكرة الشاعر في البداية كتابة النشيد الشامل لتشيلي ، (الذي أصبح فيما بعد الفصل السابع من النشيد الشامل) . وتستجيب هذه القصيدة الضخمة أكثر من أي عمل آخر من أعمال الشاعر لغايته في تأريخ شامل ، وهي الغاية التي كانت تراود ذهن نيرودا منذ بداية التنفيذ ، والتي سيعود لمحاولتها (بأسلوب آخر) في

كتب الاغنيات (Odas) المختلفة ، وفي ذكريات ايسلا نفرا .
وعندما نشر هذا الكتاب الأخير ، قام نيرودا بمراجعة لتتاجه حتى
ذلك الحين ، وبإبراز الدوافع التي شجعتة في انجاز كل مؤلف من
مؤلفاته الكثيرة .

عندما كنت أعيش في العزلة وبعيداً عن الناس ، وبلاستناد
إلى هدف ابراز وحدة شاملة عظيمة للعالم الذي أريد التعبير عنه ،
كتبت كتابي الأكثر حماسة والأكثر اتساعاً: النشيد الشامل .
وقد كان هذا الكتاب تنويجاً لمحاولتي الطموحة . إنه فسيح
مثل قطعة كبيرة من الزمن وبه غموض ووضوح في الوقت
ذاته ، لاني رميت إلى الاحاطة بالفراغ (espacio) الكبير الذي
تتحرك فيه ، وتنمو ، وتعمل ، وتضمحل الحيات والشعوب
(. . .) ورغم استخدامي لتقنيات عديدة في هذا النشيد ،
ابتداء من الكلاسيكية القديمة وحتى الاشعار الشعبية ، فإني
أريد قول بضع كلمات حول الهدف الذي توخيته من أحد
أساليبي ، وأعني به المباشرة التي يعييني بها الكثيرون وكان
هذا الاسلوب يشوه أو يدنس الكتاب . إن المباشرة مرتبطة
ارتباطاً وثيقاً بمفهومي للتاريخ . فالشاعر يجب أن يكون ،
جزئياً ، مؤرخاً لعصره . والتاريخ يجب ألا يكون ماهية ، ولا
نقاء ، ولا تثقيفاً ، وإنما يجب أن يكون وعراً ، معفراً ،
ماطراً ، يومياً . . يجب أن يتضمن البصمات البائسة للأيام
التي تكرر ، ويحمل ضيق وحسرات الانسان .

بإمكاننا الادلاء بأي رأي حول النشيد ، باستثناء القول بأن نيرودا

لم يتوصل إلى انجاز الغرض الذي كتب العمل من أجله . إن الشيد بلا شك هو تأريخ لأميركا ، ولكن هذا الوصف مقتضب وغير كافٍ للاحاطة بكل المجالات التي يتحرك فيها هذا الكتاب (التاريخ ، الجغرافيا ، الفلكلور ، مملكة النبات ، الانثربولوجيا ...) ، أو بغناه بالأصوات والأوزان والإيقاعات (فالوتيرة التنبؤية تتناوب مع أنغام «الشاطر» والرومنثير مع الغضب، والأمل مع الغنائية المحلقة ؛ والجزالة اللفظية الاسكندرانية تتناوب مع الموالم الشعبي ، وهذا بدوره مع البحور مكسورة الوزن ؛ والنغم الترتيلي يدع مكاناً للمقطعات الصارمة ، وبيت الشعر الحر للقافية الصارمة) . من كل هذه الأوزان والأصوات والإيقاعات شيد الشاعر ، بتناسق تام ، الهندسة السيمفونية لهذا العمل البارع .

وبما أن الأمر كذلك ، فلنأجد نفسي مضطراً للتفصيل في الحديث عن الشيد الشامل وتناوله فصلاً فصلاً ، محاولاً ما أمكن وضع ملخص قريب من عظمتة الحاسمة .

١ . مصباح الأرض :

يبدأ الكتاب بابتهاال إلى عالم ما قبل التاريخ « أرضي التي بلا اسم ، بلا أميركا » ، إلى الاصول الجيولوجية ، إلى الغابات التي تسكنها العصفير ، وسلاسل الجبال اللانهائية ، إلى أصوات الماء التي سُميت فيما بعد « اورنيوكو » ، و « الامازون » ، و « تيكينداما » ، و « بيو - بيو » . . لا أحد . أنظر إلى الحجارة / أنظر إلى حجارة اراوكو . وفي نهاية هذا الفصل تقط تبدأ القبائل بسكنى هذه الأرض ، فتأتي قبائل : راهومارا ، واثيكا ، وكارييب ، والمايا ،

والانكا ، والاروكانيون . . .

قبل لمة الشّعر المستعار والسترة
كانت الأنهار ، الأنهار الشريانية :
وكانت سلاسل الجبال ، وبين تموجاتها المخططة
كان الكندور والثلج يبدوان دون حراك :
كانت الرطوبة ، الأدغال ، الرعد
جميعها لا تزال دون أسماء
وكانت السهوب الكونية .

« حب اميركا (١٤٠٠) »

أمازون ، ياعاصمة ايقاعات الماء ،
إيها الأب البطريق
أنت السرمدية السرية
للاخصاب ،
تسقط إليك انهاراً كالطيور ،
تغطيك مآبر لها لون الحريق ،
والجدوع العظيمة الميتة تضمخك بالشذى ،
والقمر يعجز عن مراقبتك أو قياسك .

« الانهار تنضم »

٢ - مرتفعات ماتشوبيتشو :

في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٣ ، وبينما كان في طريق عودته
إلى سنتياغو بعد مهمة دبلوماسية في المكسيك ، زار نيرودا البيرو

وَدُعِيَ هناك لزيارة أطلال ماتشويتشو ، وهي مدينة قديمة تعود إلى ما قبل سيطرة هنود الانكا على البيرو ، وقد شيدت على ارتفاع ٢٤٠٠ متر ، في وسط الجبال ، وتطل على الاخدود الذي يمر منه نهر اوربامبا . وقد اكتشفت اطلالها سنة ١٩١٢ على يد عالم الآثار هيراسو بينجهام ، ومنذ ذلك الحين تحولت إلى رمز يدل على القدم السحيق للثقافة الأميركية . وكان الغزاة الاسبان يجهلون وجودها ، وربما لم تكن لدى هنود الانكا انفسهم سوى مجرد قصة خرافية عنها . وقد كتب نيرودا ، متأثراً بجلال تلك الاطلال - بعد سنتين من زيارته - قصيدة طويلة من اثني عشر نشيداً ، هي إحدى القمم المطلقة في نتاجه الشعري . فكل العمق الميتافيزيقي الذي في إقامة يظهر من جديد في هذه القصيدة ، وقد تغلغل تماماً في الشاعرية الجديدة للمؤلف ، وعظمة هذه القصيدة أيضاً نجدها في رفعتها على مستوى البناء الشعري ، وفي هذا التدرج الدرامي الرائع الذي يعطي القصيدة تطورها . ولا شك أن هذا الفصل هو واحد من أجمل فصول النشيد الشامل .

I

من الهواء إلى الهواء ، كشبكة فارغة
رحت أصل بين الدروب والسديم ، وأودع
في ولاية الخريف ، قطع النقد
المتدلية من الأوراق .

(أيام بريق حيّ
في عراء الاجساد : فولاذ متحوّل

في صمت الأكاسيد :
ليالٍ تحلل نسيجها حتى آخر حبة طحين :
خيوط غَزَلٍ مغدورة من وطن الزفاف) .

ثمة من انتظرنى بين الكمنجات
فوجد عالماً مثل برج مدفون
يغرس نابضه أعمق من كل
الوريقات ذات اللون الكبريتي القاتم .
أكثر عمقاً ، ما بين الذهب الجيولوجي ،
كسيف تكتنفه النيازك ،
غرست يدي المضطربة والعذبة
في أعمق ما هو تناسلي من الأرض .

ووضعت جبهي بين الأمواج العميقة ،
ونزلتُ مثل قطرة ما بين السلام الكبريتي ،
و، كأعمى ، رجعتُ إلى الياسمين
إلى الربيع البشري المستهْلَك

VIII

اصعد معي أيها الحب الأميركي .
قبّل معي الحجارة السرية .
فضة نهر ارويامبا الغزيرة
تجعل ذرات الطلّع تتطاير إلى كؤوسها الصفراء .

X

أيها الحجر الجائئ في الحجر ، أين هو الانسان ؟
 أيها الهواء المتداخل في الهواء ، أين هو الانسان ؟
 أيها الزمن المتداخل في الزمن ، أين هو الانسان ؟
 أين النثار المحطم ،
 نثار الانسان الذي لم يكتمل خلقه ، نثار النسر الأجوف ،
 أهو في دروبنا اليوم ، وفي آثار الأقدام ،
 وفي اوراق الخريف الميت
 من يعذب الروح حتى الممات ؟
 أين اليد الفقيرة ، والقدم ، والحياة البائسة . . .
 أين أيام النور المتحللة
 بك ، مثل حبات المطر المتساقطة
 فوق رايات الاحتفال ،
 حبات المطر التي أعطت ، نبتة بعد نبتة ، للقم الفارغ
 من طعامها القاتم ؟
 أيها الجوع ، يا مرجان الانسان ،
 أيها الجوع ، يا نبتة سرّية ، يا جذر الخطابين ،
 أيها الجوع ، أصعد شعاعك من بين الماء
 إلى هذه الأبراج السخّية العالية ؟

XII

اصعد يا أخي ، لنؤلدمعاً .
 مدّ يدك من أعماق

بؤرة أملك المبدّد .
إنك لن تعود من أعماق الصخور .
لن تعود من الزمن تحت الأرضي .
ولن يعود صوتك المتحجر .
ولن تعود عيناك المفقوبتان .

.....

أنا آت لأنطق بكمكم الميت .
فوحّدوا ، عبر الأرض ،
جميع الشفاه الصامتة النازفة
ومن الاعماق حدثوني عن كل هذا الليل الطويل ،
كما لو كنت مشدوداً إليكم ،
حدثوني عن كل شيء ، عن قيودكم :
سلسلة فسلسلة ،
حلقة فحلقة ، وخطوة فخطوة ،
واشحذوا المدى التي بها تحتفظون ،
واغمدوها في صدري وفي يدي ،
كنهر من النمر المدفونة ،
ودعوني أنتحب لساعات ، لأيام ، لأعوام ،
لأجيال عمياء ، وقرون كوكبية .
امنحوني الصمت ، والماء ، والأمل .
امنحوني النضال ، والحديد ، والبراكين ،
والتصقوا بجسدي وكأنه قطعة مغنطيس .

هلموا إلى عروقي وفمي .
وانظقوا بكلماتي ودمي .

٣ - الغزاة :

الفصل الثالث من الكتاب هو اداة قاسية للهمجية التي احتفل بها الغزاة الاسبان ، للسلب والدناءة التي مارسها قادتهم العسكريون ، لحماقة وتعصب رجال الدين : « رفع القسّ ذراعه ، / واحرق الكتب في الساحة / باسم ربه الصغير ». ليس هذا فحسب ، وإنما نرى الشاعر يحس أيضاً بعظمة أولئك الرجال الالفاظ الذين لا يمكن تصوّرهم من وجهة نظرنا الانسانية ، كما يفعل في قصيدة « تحية إلى بالبوا » .

أيها المكتشف ،
إن البحر الفسيح ، وزبدي ،
خفقان القمر ، وامبراطورية الماء ،
تكلمك بفمي عَقَبَ قرون .
كما لُكَّ وصل قبل الموت .
رفعت التعب حتى السماء ،
ومن ليل الأشجار القاسي
قائك العرق حتى شاطئ
أعمق البحار ، حتى المحيط الكبير .

٤ - المحررون :

إنه أكثر فصول الشيد الشامل اظهارة للتاريخ ، وأحد أطول

الفصول الخمسة عشر التي تشكل العمل . فابتداء من الهنود الكاثكيين الذين - مثل كواوتيموك أو لاوتارو- قاوموا الغزو الاسباني في القرن السادس عشر ، وحتى المحاربين والقادة العماليين في القرن العشرين - زاباتا ، ساندنيو ، ريكابارين ، برستيس -، مروراً بمن أُطلق عليهم اسم « آباء الوطن » ، - أبطال حروب الاستقلال ، مثل : ميراندا ، وبوليفار، وسان مارتين ، واوهيجينس-، يقوم نيرودا بتمجيدٍ للدعوات والحركات التحررية في اميركا خلال اربعمئة سنة ، كما يتعرض إلى قدرها المحكوم بالخضوع ويتابع تبدلات الاسياد .

وهذا الفصل غني أيضاً بتنوع رائع في الاليقاعات ، فهو يستطيع أن يمازج بين انغام الانشاء الكلاسيكي العالي كما في قصيدة « خوسيه ميغيل كاريرا »، وينتقل منها إلى الرثابة الشعبية كما في اهزوجة « مانويل رودريغيث ».

٥- الرمل المغدور

وكتشيد معاكس للفصل السابق ، يتعرض هذا الفصل للدكتاتوريين والطغاة الاميركيين ، خلال أكثر بقليل من مئة سنة ، وهو الزمن الذي كان قد انقضى على الاستقلال . وفي هذا الفصل ملحق خاص مكرس إلى غونثالث بيديلا « خائن تشيلي »، الذي وصل إلى السلطة عام ١٩٤٦ بدعم من القوى الشعبية، والذي انقلب تماماً على برنامجه بعد وصوله إلى الرئاسة . وفقد نيرودا- الذي كان مسؤولاً عن الدعاية في حملته الانتخابية- بعد ذلك حصانته

البرلمانية ليتحول إلى أكثر معارضية قسوة. فعانى من الملاحقة وامضى اربعة عشر شهراً في السرية- للمرة الأولى والوحيدة في حياته ! لينجو من الوقوع في المعتقل ؛ وفي فترة السرية هذه بالذات ، انتهى النشيد الشامل.

٦- اميركا ، لا أدعو باسمك باطلاً :

فصل قصير ، على شكل معترضة ما بين الثلاثين الأول والثاني من مخطط العمل ، وهو مؤلف من ١٨ قصيدة قصيرة مختلفة المواضيع ، والجو العام المسيطر عليها هو تضامن الشاعر مع المضطهدين والمنبوذين في الأرض .

٧- النشيد الشامل لتشيلي :

مؤلف من سبعة عشر مقطعاً تلخص المخطط الأصلي الذي وضعه الشاعر عام ١٩٣٨ : رحلة في التاريخ ، بين الناس ، الحجارة ، الأزهار ، فنون بلده التقليدية ، وبناء انسيابي للغاية ، يربط تقريباً بين موضوع وآخر دون انقطاعات مفاجئة جافة أو فجوات .

أيها الوطن ، يا وطني ، أعيد إليك الدماء .
ولكني أطلب منك ، كما يطلب الطفل من أمه
وهو مغمم بالبكاء .

هذه القيثارة استقبل الكفيفة
وهذه الجبهة التائهة .
خرجتُ بحثاً عن أبناء لك في الأرض ،

خرجتُ لأرعى شهداء باسمك الثلجي ،
خرجتُ لأشيد بيتاً من أخشابك النقية ،
خرجتُ لأحمل نجمك إلى الأبطال الجرحى .
والآن ، أريد أن أنام في جَوْهرك .
فأعطني ليلك الواضح ذي الأوتار النفوذة ،
ليلك الثلجي ، قامتك النجمية .

« نشيد وعودة (١٩٣٩) »

٨ - الأرض تسمى خوان :

هذا فصل مؤلف من سبع عشرة قصيدة ، خمس عشرة منها قصص عمال ، ومزارعين ، وحرفيين مروية بصيغة الحاضر المتكلم على لسان أبطالها ، على طريقة إدغارلي ماستيرس في «Spoon River Anthology» . إن جوهر هذه الحيات البائسة ، والاستغلال الذي عانت ، وفشلها ، هو تحية مؤثرة من الشاعر إلى « خوان » جميع الأجيال ، هذا الذي كان في كل لحظة « وراء المحررين » .

٩ - فليستيقظ الخطاب :

فصل سياسي . وهو أغنية حب وتحذير للولايات المتحدة الاميركية الخارجة لتوها منتصرة من الحرب العالمية الثانية . يستحضر بها نيرودا ظلال جواميس « البوفالو » ، وحرية السهول الفسيحة ، وكلمات ويتمان وميلفيل ، وأحلام ابراهام لينكولن المعادية للرق (ولينكولن هو الخطاب المقصود في العنوان) . وفي نهاية رائعة ، وبأبيات قصيرة ، يبشر بالاخوية العالمية ، ببساطة صعبة كما في

ديوانه « شاذ » . يقول الشاعر :

لا أريد أن يفكر أحد بي
لنفكر بالأرض كلها ،
ونحن ننقر بحب على الطاولة .
لا أريد أن تعود الدماء من جديد
لتلطنخ الخبز ، واللوبياء ،
والموسيقى .
أريد أن يأتي معي عامل المناجم ،
والطفلة ، والمحامي ، والبحار ،
وصانع الدُمي ،
لندخل معاً إلى السينما ونخرج
لنشرب أشد النبيذ احمراراً .
أنا لست آت لأحلّ أية قضية .
لقد أتيت هنا لأغني
ولتغنوا معي .

١٠ - الطريق :

بعد رفع الحصانة البرلمانية عنه - كان قد انتخب عام ١٩٤٥
عضواً في كونغرس الجمهورية عن منطقتي تاراباكا وانتوفاغاستا -
تعرض نيرودا لمحاكمة سياسية . فانتقل إلى السرية . وقد جال
طوال سنة عبر تشيلي ، التجأ خلالها إلى بيوت عديدة كانت تقدم له
المأوى ، وكان اثناء ذلك يكتب النشيد الشامل ، إلى أن تمكن من
اجتياز سلسلة جبال الانديز من طرفها الجنوبي ، على متن بغلة ،

ووصل إلى الأرجنتين في شباط (فبراير) ١٩٤٩ ، متنكراً وشارب
كثيف يجعله غير معروف . وكل ما كان يحمله معه هو المخطوطة
الاصلية للنشيد . وكان كتابه - المتخفي مثله - يحمل عنواناً مزيفاً :
ضحكات ودمعات ، ويقع في حقيبة تحمل اسم بينيغناسينوتا .
وهذه هي التجربة التي يقصها في الفصل العاشر .

إلى الجميع ، إلى الجميع ،
إلى كل الذين لا أعرفهم ، إلى كل أولئك
الذين لم يسمعو باسمي قط ،
إلى الذين يعيشون على ضفاف انهارنا الطويلة ،
وعلى سفوح البراكين ، وفي ظل
النحاس الملتهب ،
إلى الصيادين والفلاحين ،
إلى الهنود الزرق المقيمين على شواطئ
البحيرات المتألقة كالبلّور ،
إلى الاسكافيّ الذي يتساءل الآن
وهو يخيّط الجلد بأيّد قديمة ،
إليك أنت ، يا من انتظرتني دون أن تعرفني ،
إليكم جميعاً انتمي ، وبكم أعترف ، ولكم أعني .

١١ - ازهار بونيتاكي :

بهذا الفصل يبدأ الثلث الأخير من العمل ، وموضوعه
هو سرد وقائع الحملة الانتخابية التي قام بها نيرودا في شمال

تشيلي، والتي انتخب بعدها عضواً في مجلس الشيوخ. إنها حملة انتخابية فريدة من نوعها - عمادها الأساسي الشعر والاتصال الشخصي والمباشر بالفلاحين - وقد كانت هذه التجربة حاسمة في حياة نيرودا، وأكدت له حقيقة المنابع التي اختارها لشعره.

١٢ - انهار الغناء :

ميغيل اوتيرو سيلفا، رفائيل البيرتي، غونثالث كاربالهو، سيلفيستري ريفويلتاس، وميغيل هيرنانديث، هؤلاء الأخوة الشعراء هم «انهار الغناء» ولهم يكرس نيرودا هذا الفصل المنظوم بموسيقى بطيئة متخذة شكل الاتصال الرسائي:

أنت تعلم يا بني ، كل ما لم اعلمه ، وأنت تعرف
فإنك كنت لي ، في كل القصائد ، كنت اللهب الأزرق .
واليوم أضع وجهي على التراب لأصغي إليك ،
لأسمعك : دماً ، موسيقى ، وشهداً محتضراً .

لم أرَ سلالة أكثر تألقاً من سلالتك ،
ولا جذوراً أكثر صلابة ، ولا حتى يدي جندي ،
ولم أرَ شيئاً ينبض بالحياة أكثر من قلبك
الذي احرق ذاته في ارجوان رايتي .

« إلى ميغيل هيرنانديث ، القتل في سجون اسبانيا »

١٣ - كورال سنة جديدة للوطن الذي في الدياجير :
هذا الفصل حسب التسلسل التاريخي هو آخر فصول النشيد ،

وقد كُتِبَ عندما كان الشاعر يتأهب للبدء في حياة نفي لا يدري كم سيدوم . ويضم هذا الفصل ، مثله كمثله سلسلة الجبال التي يلهج بذكرها ، سفحين : في احدهما الهجاء ، وعدم التواني عن تكرير الادانة للدكتاتور غونثالث بيديلا ؛ وفي السفح الآخر ، السفح الرائق الرخيم ، يؤكد نيرودا ، بإصرار أكبر من كل ما تقدم ، على وطنيته كشيلي ، وحبه الذي لا سبيل للتخلي عنه للناس والأشياء في بلده .

سنة سعيدة أيها التشيليون ، للوطن الذي في الدياجير ،
سنة سعيدة للجميع ، لكل واحد منكم ما عدا واحد ،
اننا قليلو العدد ، سنة سعيدة ، يا أبناء موطني ، يا اخوتي ،
رجالاً ، نساء ، أطفالاً ،
فصوتي يطير اليوم إلى تشيلي ، إليكم ،
ويضرب مثل عصفور اعمى على نافذتك ،
ويناديك من بعيد ،
يا موطني ،

« تحية (١٩٤٩) »

١٤ - المحيط العظيم :

العلاقة الحميمة القديمة لنيرودا بجنوب الباسفيك تنبذ هنا ، للمرة الأولى في اشعاره ، بكل بريقها : اعادة بناء الأسطورة حول جزيرة رابا - نوي السحرية (جزيرة باسكوا) ، الحوار مع الأعماق السحيقة ، القصائد المكرسة للطيور البحرية أو لسكان الشواطئ ، وحتى تلك الدرة الصغيرة المنظومة بعنوان « رخوية غونغورية » (التي

كتبها عالم الرخويات العظيم : نيرودا) ؛ والفصل بكامله يعكس غنى مشهدياً ، وحشياً ، يضعه خارج التاريخ وأحداثه ، ويمنحه نوعاً من الثبات الذي ترسخه إلى حد كبير الأوزان الفسيحة والفخمة التي يستخدمها الشاعر . وكأن نيرودا ، وهو يقترب من اختتام عمله بفصل « عن المؤلف » ، يريد أن يعود إلى البهاء الأصيل - في الجانب البحري هذه المرة - ، إلى زمن الأصل الذي سبق الحضارة والذي افتتح به سيمفونيته في الفصل الأول .

١٥ - أنا هذا :

للمرة الأولى يستعرض نيرودا حياته في عمل من أعماله - سيعود إلى هذا فيما بعد ، حتى ينتهي إلى تصفية حساباته مع نفسه تماماً في ذكريات إيسلانغرا - مشيراً إلى النقاط المركزية في سيرة حياته : علاقته الحميمة بمنطقة لافرونتيرا (« طفولتي هي أحذية مبللة ، جذوع مهشمة / ملقاة في الغابة ، تلتهمها النباتات المتسلقة ») ، حبيبته في تيموكو (« بعض الضفائر فقط ترتفع حركتها / نحو عزلتي مثلما ترتفع شعلة سوداء ») ، البيت ، الأب ، الرحلة الأولى إلى سستياغو ، الحبيبة ساكنة الحي الشعبي (« آه ، أنت أكثر طلاوة ، أكثر اتصالاً / من الخلاوة ، أيتها الحبيبة الجسدية ») ، الرحلة إلى الشرق ، الحرب الإسبانية ، لقاء الحب من خلال علاقته بديليا دل كاريل ، إقامته المؤقتة في المكسيك وعودته إلى تشيلي ، اكتشافه النهائي للأشياء البسيطة والنقية على الأرض (« أريد أن أكل بصلاً ، أحضر لي من السوق / واحدة ، كرة منها مترعة بالثلج البلوري ») ، ويمهد للخطوة التالية في شعره على طريق دواوين

الاغنيات - Odas ، واعتناقه العقيدة الشيعية . في المحاسن
والمساوىء ، وأمام المعجبين والاعداء ، يقف نيرودا هنا منتصباً بكل
قامته ؛ لينهي كتابه الرحب ، واضعاً أمام الجميع ملامح هويته .

لست أدري ، حبيبي ، ما إذا كان سيتاح لي الوقت والمكان
لأرسم بكلماتي ، مرة أخرى ، ظلك الرقيق
الممتد على صفحتي ، يا زوجتي :
إنها لقاسية ومشعة هذه الأيام ،
نأخذ منها العذوبة
معجونة بالرموش والأشواك .
ما عدت أعرف بدايتك :
لقد كنتِ تأتين قبل الحب ،
مع كل ماهيات القدر ،
وقبلك ، كانت العزلة لكِ ،
ربما كانت هي شعرك النائم .
واليوم ، أكاد اسميكِ كأس حبي ،
عنوان أيامي ، أيتها المعبودة ،
وتحتلين أنثي في الفضاء ، كما النهار ،
نور الكون كله .

« الحب »

ليهتم غبري بمدافن العظام الميتة . . .
فالدنيا
لها لون تفاحة عارية : الانهار

تجرف فيضاً من الأوراق البرّية
وفي كل مكان تحيا روساريا الجميلة وخوان الرفيق . . .

.....

« الحياة »

اتنازل للنقابات
نقابات عمال النحاس ، والفحم ، والنيترات
عن بيتي الذي بجانب بحر ايسلا نغرا .
أريد أن يستريح هناك أبناء وطني المنبوذين ،
وطني المسلوب بالفؤوس والخونة ،
المتخبط في دمه المقدس ،
المستنزف في أسمال بركانية .

هذا هو بيتي يا أخي ،
فادخل إلى عالم الزهرة البحرية والحجر النجمي
الذي شيدته مناضلاً في فقري .
ها هنا وُلد صوت نافلتي
كما في قوقعة متنامية
ثم رسّخ امتداداته
في جغرافيتي المضطربة .

.....

« شهادة (١) »

هكذا ينتهي هذا الكتاب ،

وهنا أترك النشيد الشامل ناجزاً
في ظل المطاردة ، ومغنياً
تحت اجنحة وطني السرية .
في اليوم الخامس من شباط ، من هذه السنة ، سنة ألف
وتسعمائة وتسع واربعون ، في تشيلي ، في « غودومار دي
تشينه » ، قبل شهور قليلة من بلوغي الخامسة والأربعين .
« هنا أنتهي »

* * *

لقد استقرت فكرة النشيد الشامل لتشيلي في ذهن نيرودا عام
١٩٣٨ ، عند عودته إلى موطنه بعد السنوات الخمس التي امضاها في
اسبانيا . وفي هذه السنة بالذات يتوفى والده ، ثم تتوفى زوج أبيه
بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام ، فيعود إلى تيموكو ، العودة المؤثرة التي
يسجل الشاعر ذكرها في كأس الدم : فبعد الانهاك في السفر
والنضال يشعر نيرودا بنداء الجنوب ، نداء الغابة والاقيانوس ، نداء
كل ما هو تشيلي . فيأخذ بالتأهب ، ويشتري بيته في ايسلانغرا ،
الذي كان في ذلك الحين بيتاً نائياً بلا نور ولا ماء للشرب ، على بعد
اربعين كليومتراً إلى الجنوب من مدينة البارايسو . ويفكر بالاقامة
هناك لينظم كتابه . ولكن احداث حياته المرتبكة وعزلته العميقة
تجعل من هذه الخطط البسيطة أمراً غير ممكن التحقيق ؛ إذ انه اضطر
لكتابته وهو يحتاج آلاف الكيلومترات ، وقد تأخر الكتاب اثنتي عشرة
سنة ليصل إلى شكله النهائي ، وخلال هذا الوقت اتسع العمل
وفاض من حواف تشيلي ليصبح نشيد اميركا بأسرها .

لقد رأينا الأسباب التي جعلت من عام ١٩٣٩ معترضة اوروبية جديدة في حياة نيرودا : فبعد انتهاء مهمته مع اللاجئين الاسبان ، يرجع الشاعر من جديد إلى وطنه . ويفعل ذلك ، تفاؤلاً ، على عتبة سنة جديدة (يوم ٢ كانون الثاني ١٩٤٠) ، وفي بداية حقبة ستكون الحقبة الأكثر اميركية في حياته . ومع ذلك فإنه لا يبقى في تشيلي إلا لفترة قصيرة لأن حكومته تعينه قنصلاً عاماً في مكسيكو ، التي يتوجه إليها في شهر آب من هذه السنة ، ويبقى فيها حتى الشهر نفسه من سنة ١٩٤٣ . وخلال شهري أيلول وتشرين الثاني يعود إلى تشيلي عبر الطريق المحاذي لشاطئ الباسفيك ، في رحلة طويلة ومحفوفة بالحفاوة ، سبقها التكريم الصاخب من جانب اصدقائه المكسيكيين . وتكتب مرغريتا اغيري ، المتخصصة في سيرة حياته ، حول هذه الفترة ، فتقول : في كل مكان كانوا ييايعونه بشكل لم يحدث ، على ما أعتقد ، لأي شاعر آخر . وعن تلك المرحلة أيضاً تقول رفيقته فولوديا تيتلبويم مؤكدة : لم يحتل شخص تشيلي أبداً مكانة رفيعة ، وعزيزة ، وخطيرة في عدد كهذا العدد من البلدان الاميركية كالمكانة التي احتلها نيرودا .

في السنة التالية - وقبل اتمامه الأربعين بقليل - يمنح الجائزة البلدية للشعر في سنتياغو ، وفي عام ١٩٤٥ يحصل على الجائزة الوطنية للأدب . وتتوالى التكريمات والتشريفات في الانهماك عليه ، وتتضاعف طبعات كتبه وترجمات في هذه السنوات ، بينما التشيد الشامل يتابع خاضه ببطء ودقة .

ومنذ شهر آذار (مارس) ١٩٤٥ يصبح نائباً عن الحزب

الشيوعي في مجلس الشيوخ ، ولكن معارضته لحكومة غابرييل غونثالث بديلاً تسبب في طرده . وفي الخامس من شهر شباط (فبراير) ١٩٤٨ يصدر أمر باعتقال نيرودا ، فيبدأ الشاعر مرحلة خصيبة من الحياة السرية ، ينهي خلالها نشيده الشامل . وبعد هروب روائي إلى الأرجنتين ، عبر جبال الانديز الجنوبية ، يغادر كذلك هذا البلد الأخير- إذ ان الشرطة البيرونية ما كانت ستوانى عن تسليمه لمطاردية - مستخدماً جواز السفر الخاص بميغيل انخل استورياس ، الذي كانت تربطه به صداقة حميمة وتشابه كبير في الملامح . وفي اوروبا- في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ - يعود إلى العلنية ، ويدعى للمشاركة في المؤتمر الأول لأنصار السلام الاميركيين اللاتينيين ، الذي عقد في مكسيكو في شهر ايلول (سبتمبر) من تلك السنة . ويلتقي هناك من جديد بماتيلدي اوروتيا- زوجته الأخيرة ، وارملته حالياً-، والتي كان قد تعرف عليها في تشيلي ، وتبدأ العلاقة بينهما : حيث يسقط الشاعر مريضاً ويضطر للبقاء في القطاع الاتحادي - حيث كانت تعيش ماتيلدي في ذلك الحين ، بحكم عملها كمديرة لمدرسة للغناء - حتى نهايات العام .

وفي مكسيكو بالذات ، في بدايات عام ١٩٥٠ ، تظهر الطبعة الأولى من النشيد الشامل ، الذي يستقبله النقد بأشد الحماس ، وتجري ترجمته بسرعة إلى لغات العالم الرئيسية في السنوات التالية .

ابحارات وعودات

(١٩٤٩ - ١٩٦٤)

« اني احبكمما أيتها المثالية والواقعية ،
مثل ماء وحجر
انتما
جزءان من العالم ،
ضوء شجرة الحياة وجذرها » .

بعيداً عن الانهاك في الجهد الطوفاني المبذول في التشيد الشامل ،
يبدو أن اشعار بابلو نيرودا قد استمدت دفعاً أرضياً ومحيطياً منذ
انجازه : فخلال السنوات الأخيرة من حياته ، أصبحت اعماله -
الواسعة - ضخمة ومتنوعة . فقد أضيف إلى اعماله الكاملة خمسة
وعشرون كتاباً (أي مجلدين من الورق الرقيق ، مؤلفين من ٣٢٣٧
صفحة ، صدر مع الطبعة الثالثة من الأعمال الكاملة عام ١٩٦٨)
واستمرت مؤلفاته بالاتساع ، فصدرت عشرة كتب أخرى فيما
بعد . كما أضيفت أحداث جديدة هامة إلى سيرة حياته ، حيث
نال ، ككاتب ، جائزة نوبل ، ورُشح ، كرجل ذي شعبية ، إلى
رئاسة الجمهورية في وطنه . وللإطلاع على حياته الخاصة والعامة ،

سأحيل القارىء - منذ الآن - إلى العرض التاريخي لحياته الوارد في بداية هذا الكتاب ؛ وسأحاول في الصفحات المتبقية أن اركز بشكل خاص على تطور اعماله الشعرية .

إن اختيار التواريخ التي ترافق عنوان هذا الفصل لم يكن اختياراً عابثاً : ففي عام ١٩٤٩ انتهى نيرودا النشيد الشامل ، وفي عام ١٩٦٤ نشر الاجزاء الخمسة ، التي تؤلف ذكريات ايسلانغرا . وأنا اعتبر هذين العاملين هما العاملان الكبيران اللذان يمثلان نضوجه الشعري (ولا بد أن أضيف اليهما أيضاً ديوان اغنية البحارة الصادر عام ١٩٦٧) . ولكن نيرودا كتب ونشر خلال هذه السنوات ثلاثة عشر كتاباً آخر ، سأقدمها من خلال تشابهاها - عندما تتوافر هذه التشابهات - ، متبعاً بشكل عام ترتيبها حسب أهميتها ، من الأقل إلى الأكثر أهمية .

رحلات : هو كتاب نثري ، نشر عام ١٩٥٥ ، يتضمن ثلاث محاضرات ألقاها نيرودا في زمن سابق . والمحاضرة الأكثر أهمية منها هي الأولى (« رحلة إلى قلب كيبيدو ») ، وذلك بسبب المداخلة الشخصية التي يقوم بها حول الميتافيزيقيا الكيبيدوية ، القائلة بأن « المرض الوحيد القاتل هو الحياة » .

في عام ١٩٦٠ ينشر اغنية مفخرة ، وهو الكتاب الشعري الأول المكرس للثورة الكويية الوليدة ، والكتاب منظوم على شكل مقطعات من أحد عشر بيتاً ، متناوبة القوافي ؛ أي أنه منظوم بأحد أكثر اشكال الهندسة الشعرية تقليدية وشعبية وذلك لتسهيل حفظه عن ظهر قلب أو لتحويل قصائده بسهولة إلى اغانٍ . وفي السنة

التالية يظهر ديوان احجار تشيلي ، ليمثل فصلاً جديداً - يمكن تسميته بالفصل الحجري - في هذا التاريخ الشاهدي القائم في مركز المشروع الشعري النيرودي .

ديوانان حول الحب هما اللذان يكرسهما الشاعر لزوجته ، ماتيلدي اوروتيا ، وإذا كان بالامكان رؤية الكتابين كليهما ككل واحد ، من ناحية وحدة العاطفة التي أوحى بهما ، فإنهما مختلفان فيما يتعلق بالشكل الفني ، والبناء ، واستطيع أن أقول بأنها مختلفان في المزاج كذلك . فديوان اشعار القبطان (كتب عام ١٩٥٠) ونشر في ايطاليا على يد الناشر باولوريشي ، في طبعة خاصة ومغفلة من اسم المؤلف عام ١٩٥٢ ، ثم نشرته دار النشر لوسادا وهو مغفل من توقيع صاحبه كذلك عام ١٩٥٤ ، وقد اعترف به الشاعر أخيراً في عام ١٩٦٣) . يبدو استمراراً لقصائد الحب العشرين الشهيرة ، سوى أنه يحمل بتجربة جسدية أكبر ، وبرؤية غنائية راسخة الأقدام في الأرض . أما ديوان مائة قصيدة حب (١٩٦٠) فهو ، على العكس ، أحد اعمال نيرودا الشعرية المشغولة بتقنية عالية . إن هذه «القصائد الخشبية» - كما يسميها الشاعر ، وهو يشير إلى رفضه الطوعي للقوافي الغنائية - تصدح على كل حال بموسيقى رائعة ، تكفي بحد ذاتها لتبدد أكثر من نقد أبحر حول اخلاص نيرودا وحميميته في عمله (والقضية هي أن لا يد من قلب جميع حدود هذا النقد : فعندما يهبط نيرودا لينظم اشعاراً ديماغوجية ، أو مكرورة ، أو نائحة ، فهو دون شك لا يفعل ذلك لأنه « لا يخرج معه » ما هو أفضل ، وإنما لأن لديه اسبابه الايديولوجية - التي يمكن اعتبارها غير

شاعرية أو العكس ، ولكن هذه قضية أخرى - ليكتب بهذه الطريقة) .

منذ خروجه من تشيلي ، عام ١٩٤٩ ، وحتى عودته الظافرة في آب (أغسطس) ١٩٥٢ ، يعيش نيرودا محروماً من وطنه لأكثر من ثلاث سنوات ، يسافر خلالها بلا توقف : ففي هذه المرحلة يكتشف إيطاليا وروعة البحر المتوسط ، ويقوم أيضاً برحلاته إلى الاتحاد السوفييتي والصين وأوروبا الشرقية . ومن هذا التوسع في رؤيته الأوروبية والاسيوية ، الذي سيستمر خلال الستينيات (انظر الاستعراض التاريخي) يبرز كتابه الأكثر إثارة للنقاش - وربما الكتاب الذي يلاقي أقل عدد من المعجبين - ، ولكنه كان الكتاب الأقرب إلى نفس مؤلفه : الاعناب والريح . وقد تحدث نيرودا عنه ، قبل نشره بقليل ، في المؤتمر القاري للثقافة الذي عقد في ستيياغو دي تشيلي عام ١٩٥٣ ، فقال :

بعد كتابي النشيد الشامل وبعد رحلاتي عبر العالم ، كتبت ديواناً ، لا يزال بلا عنوان ، التقط فيه احب الأمور إلى نفسي في كل من أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة . وأنا أطلق تسمية أوروبا الجديدة على أوروبا الاشتراكية . وأريد لهذا الكتاب أن يكون مساهمة مني في السلام . فأنا أبحث فيه عن أفضل منجزات أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية ، أبحث عن الأبطال والشعوب ، عن العسافير والحاصلات ، عن الأرض ، الجسور ، القرى ، النبيذ وأريد لهذا النشيد أن يجمع شمل هذه الوحدة المهددة : عالمنا اليوم .

وبعد عدة سنوات ، يخرج في مذكراته ليدافع عن كتابه الذي تعرض للطعن أكثر من سواه :

الحقيقة هي أن في نفسي ميلاً إلى ديوان « الاعناب والريح » ، ربما لأنه الكتاب الأصعب على الفهم ، أو لأنني شرعت عبر صفحاته بالتجوال في العالم . إن فيه غبار دروب ومياه انهار ، فيه كائنات ، ومجالات وما وراء بحار لأماكن أخرى ما كنت أعرفها وانكشفت لي لكثرة تجوالي . إنه واحد من أحب كتبي إلى نفسي ، أكرر هذا وأعيده .

دون الوقوع في مبالغات أحد النقاد الاكوادوريين - الذي راح يؤكد أن الكتاب كله لا يتضمن أكثر من ست صفحات من الشعر الحقيقي - فإننا كذلك لا نجاري الشاعر في حماسه لهذا الكتاب . ويبدولي في أفضل الأحوال أنه كتاب انتقالي ، ونوع من المعارضة الأوروبية للتشيد الشامل ، لم يتوصل فيه نيرودا إلى العثور على الايقاع الكبير الذي تسمح بساطته التعبيرية الرائعة بالحديث عن كل الأمور على الإطلاق ، دون فقدان السبيلة الشعرية ، التي تتحول إلى تنفس حقيقي آخر . إن الكتاب يحتوي بكل تأكيد على أكثر من ست قصائد ممتازة ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه العديد من القصائد الدعائية الضيقة ، وهذه القصائد ، على الأقل ، هي أكثر من العدد المطلوب لكي لا يفقد الكتاب توازنه .

الكتاب الثاني في هذه السنوات ، والذي سأقيمه أيضاً على أنه كتاب انتقالي ، هو ديوان اغان احتفالية (١٩٦١) . ولكنني اعتقد أن الحديث عن الانتقالية في هذه المكانة والمعرفة الشعرية التي وصل

إليها نيرودا ، لا يمكن أن يكون تحقيراً ، وإنما يجب أن يُفهم ضمن سياق أعمال نيرودا الكثيرة والمتنوعة . إن اغان احتفالية - لو أخذ معزولاً ، وكان من نتاج شاعر آخر أقل عالمية وشهرة - هو كتاب عظيم ، مع أنه ليس كذلك بالنسبة لهذه السنوات من حياة نيرودا التي انتجت أعمالاً أخرى سنراها فيما بعد . وكمثال على ثقة الشاعر واحكامه لكلماته في ذلك الحين ، اظن أنه يكفي ايراد نهاية قصيدة « ابن العم الغربي » ، وهي القصيدة - المقدمة للكتاب .

الرمل الذي فقدنا ، الحجر ، الأوراق ،
الشريط البري ، وما كناه ،
نراه متخلفاً وراءنا ولا من يبيكيه :
فالمدينة لم تأكل فقط الصبية
القادمة من « تولتين » بسلتها الفاتحة
المفعمة بالبيض والدجاج ،
وإنما أكلتك أنت أيضاً أيها الغرب ،
أنت أيها الأخ المصلوب ،
المعادي ، يا وغداً بيد السلطة :
وشيئاً فشيئاً صار للعالم طعم الدود
ولم تعد ثمة أعشاب ،
ولم يبق ظلٌّ على كوكبنا .

في عام ١٩٤٥ ، يفتتح نيرودا بنشره ديوان اغان بدائية مرحلة جديدة ، وخصبة ، ورائعة من شعره ، متوصلاً إلى مأثرة لا سابق لها في الشعر الناطق بالاسبانية : فقد شيد بناء شعرياً شامخاً ومشبعاً

بذاتيته ، وذلك بحشد ونقل المواد الشعرية الدنيا ، بل والهشة ، مع كل تلك الموضوعات التي اعتبرت، حتى ذلك الحين ، غير لائقة في الشعر (إذا ما تم تناوؤها بشكل منهجي على الأقل). فالأرضي شوكي ، وحساء ثعابين الماء ، والبصل ، والبندورة ، والسلك الشائك ، والزيت ، والجوارب ، والكبد ، والخوخ هي التي تسكن هذه الدواوين الصافية الشفافة (صدر ديوان اغان بدائية جديدة في السنة التالية ، ثم ديوان الكتاب الثالث للاغاني عام ١٩٥٦ ، ولا بد من اضافة ديواني ابحارات وعودات (١٩٥٩) ، وصلاحيات كاملة (١٩٦٢) إلى هذه الحلقة ، فكلاهما كتابا اغنيات بمفهومهما وبلغتهما ، وقد وصل عدد هذه الاغنيات إلى ٢٧٩ اغنية). ويقول أ. كوماس ، في معجم بومبياني الأدبي : يبدو وكأن الأشياء المقوضة ، والمغفرة ، والتي تظهر متفسخة في ديوان اقامة في الأرض ، تحصل فجأة على شخصيتها الكاملة ، وترسخ كيتونتها ، وضرورة وجودها . ويصل نيرودا في الاغنيات إلى غزو كل ما هو محسوس . وحتى أن الناقد المتزمت الوني - بطريك النقد التشيلي ، والعدو السياسي لنيرودا - يرضخ أمام لقية الشاعر التي لا شك في عبقريتها ، وفي تعليق لا اسراف فيه يقول : ... عارٍ من الحزن ، ومن الظلمة والحقد ، ودون نواح ولا شعارات ، نجد شاعراً ساطعاً في شعر كوني ، شاعراً واضحاً ، الشاعر الابسط والأوضح ، سعيداً ، طيباً (...) ويؤكدون بأن هذا الوضوح فرضه عليه السوفييت ليصل إلى الشعب . وإذا كان هذا صحيحاً فإنه يتوجب علينا أن نسامح السوفييت كثيراً ؛ لأنهم اصابوا كثيراً ، فنيرودا الواضح والسعيد أشمخ بكثير ، وأكثر حرية - وهو أمر

علاقته ضئيلة بالماركسية-، فقد أصبح وكأنهم قد افلتوا زمامه ولم يعد يمشي تحت وطأة ذلك الثقل . وبعد تصفية المראה ، وابعاد التعقيد المظلم ، كان الخوف من أن يبحث الشعر عن الاسفاف والتدني إلى المستوي العادي وأن يهبط ليصبح نثراً . ولكن شعر نيرودا لم يظهر أبداً بمثل هذه الصحة .

ويستحضر الشاعر نقطة البداية في مفهوم الاغنيات ، فيعطي رشداً لنقاده ، ويشير مباشرة إلى نقطة الانطلاق المفترضة في عمله .

... افترضت لنفسي ركيزة اصيلة ، مولدة . رغبت باعادة وصف اشياء كثيرة غنيت وقيلت وأعيدت مراراً وتكراراً . كان لا بد لنقطة انطلاقي المتعمدة أن تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يحص القلم ، بكتابة موضوع انشاء مفروض عليه كوظيفة مدرسية عن الشمس ، أو عن السبورة ، أو عن الساعة ، أو عن الأسرة الانسانية . ولا موضوع كان يمكن أن يبقى خارج دائرتي ، كان علي أن أمس كل شيء وأنا سائر أو طائر ، مخضعاً تعبيرتي للشفافية القصوى والبتولة الكبرى .

إن الميول الوصفية عند نيرودا ، تصل في الاغنيات إلى حد الاشباع : فهو مطلق التسميات ، الذي يؤسس الواقع بالكلمة ؛ ويلتقي قدره كشاعر ومفهومه للشعر لقاء نهائياً اعتباراً من هذه المرحلة . ولا بأس علينا أن نورد- كنموذج لفن الشعر في هذه المرحلة ، والذي سبقى صلاحيته سائدة اعتباراً من هنا وحتى النهاية- قصيدة « واجبات الغد » ، وهي القصيدة- الخاتمة التي

ينتهي بها ديوان ابحارات وعودات :

اغنية بلا نهاية ، الامس
والغد (اليوم مبكر)
تولد ، ولدت ، ستولد ،
لتفيد عطش السائر والدرب ،
وستهطل كالمنطر ،
كالخريف ستسقط
لتهدر
صفاء الري

* * *

لكل عجلة أقول ،
انتظري أيتها العجلة ، انتظري :
ها أنا آت ، ها أنا قادم ، شمساً
صغيرة
لنتدحرج معاً .

أجل أيتها العجلة ، ستدحرج معاً .
أجل أيها اللهب ، سنلتهب معاً .
أجل أيها القلب ،
أعرفُ ،
أعرفُ ،
ومعروف أنه :

إلى الحياة ، إلى الموت
هذا المصير ،
لكننا مغنين سنموت .

ديوان آخر من التي سنتناولها في هذا الفصل هو ديوان شاذ
(١٩٥٨) ، وهو بلا ريب كتاب متفرد بين كتب نيرودا ، لا سابق له
بين اعمال الشاعر ولن يكون له أي استمرار . فالكتاب بأسره ،
اعتباراً من العنوان الاحتفالي المبتكر ، هو فرح نقي ، وظرافة
متأرجحة .

من بين كتيبي كلها ديوان شاذ ليس هو أكثرها غناء ، بل هو
احسنها وثباً . إن أبياته الوثابة تقفز متجاوزة الوقار
والاحترام ، والحماية المشتركة ، والقواعد السائدة
والواجبات ، كي ترى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو
أكثر كتيبي الفة في نفسي ، ويسبب مداه يتوصل إلى احراز
اهمية ومكانة داخل شعري . وعلى طريقي في التدوق ،
اعتبره كتاباً عسيراً ، وله طعم الحقيقة المالح .

وهذا الديوان هو دليل آخر ، ولن يكون الأخير ، على تجديد
نيرودا الذي لا يتوقف ، وقلقه الرائع للاحاطة بكل الشعر ،
وليستخرج جميع تخوم الشعر المخفية في اعماقه . ولا أجد لمناقشة
هذا الكتاب الخالي من أي وقار ومن أي نوايا مسبقة ، أفضل من
ايراد ابيات متفرقة كمختارات خاطفة من القصائد الثماني والسبعين
التي تؤلفه . فكل فلسفة الزين (Zen) التي احاطت بها معارف
نيرودا في شبابه ، تنعكس فيها :

إذا رغبتُم فاذهبوا الآن .
لقد عشت كثيراً ، ولا بد أنكم
ستنسوني يوماً
وتمحوني عن السبورة :
لقد كان قلبي بلا نهاية .
ولأني أطلب صمتاً
فلا تظنوا بأني سأموت ؛
بل على العكس تماماً :
ما يحدث هو أنني سأعيش .

« اطلب صمتاً »

وداعاً يا شارع الزمن القذر ،
وداعاً ، وداعاً أيها الحب الضائع ،
سأرجع إلى صنوبة بيتي
سأرجع إلى حب محبوبتي ،
إلى ما كنت وإلى ما أنا كائن ،
ماء وشمس ، أرض وتفاح ،
شهور بشفاه واسماء ،
سأرجع كي لا أعود ،
لن اخطيء أبداً بعد اليوم ،
فالمسير إلى الورا خطير
لأن الماضي فجأة يصير سجناً .

« عودة إلى مدينة »

إذا اردتم فلا تصدقوا شيئاً مما قلته .
رغبت أن أعلمكم بعض الأمور فقط .
لأنني استاذ في الحياة ،
وتلميذ كسول في الموت
وإن كان ما قلته لا ينفعكم
فأنا لم أقل شيئاً ، وإنما كل شيء .

« ليس عالياً جداً »

اخاف من كل ما في العالم ،
من الماء البارد والموت .
وأنا مثل جميع الفانين ،
لا أتأجل .
ولهذا ، لن اهتم بكم
في أيامي القصيرة هذه ،
سأفتح نفسي واغلق نفسي
مع عدوي الغادر الكبير ،
بابلو نيرودا .

« الخوف »

لقد رأيت بعض التماثيل
مقامة للجبابرة ،
لحمير النشاط .
إنهم امامكم بلا حراك
حاملين سيوفهم

على صهوات جيادهم الحزينة .
إنني متعب من التماثيل .
لا أستطيع احتمال كل هذه الحجارة .
وإذا استمرينا غملاً الدنيا
بهؤلاء الجامدين ،
فكيف سيجد الاحياء مكاناً للحياة ؟

« بعض المتاعب »

وهكذا، لأخرج من الشكوك
قررت أن أحيا حياة شريفة
حياة أشد الكسل نشاطاً،
طهرت نواياي،
وخرجت لأكل مع نفسي
فبدأت أصير أخرس .
جذبت نفسي أحياناً لأرقص معي،
لكن بلا حماسة كبيرة،
وغنت وحيداً، بلا شهية،
كي لا أخطيء بالغرفة .

« حول قلة ادبي »

في عام ١٩٦٤ ، وفي نفس اليوم الذي اتم فيه الستين من
عمره ، اهدى نيرودا للنشر ، الاجزاء الخمسة من ذكريات
ايسلاندغرا ، وهو الديوان الذي اعتبره أكثر أعماله تمثيلاً . ولا أقول
أجمل أعماله ، إنما أكثرها تمثيلاً لشعره . فالجوهر الانتولوجي للشعر

النيرودي حاضر كما لم يحضر في أي عمل آخر من أعمال الشاعر ، وكذلك سيرة حياته المعادة من جديد ، ومفهومه للتأريخ كمستقر للشاعرية .

لقد عدت في هذا العمل أيضاً ، متعمداً ، إلى البدايات الحسية لشعري ، إلى غسقيات ، هذا يعني ، إلى القصيدة التي تحمل آثار كل يوم . وعلى الرغم من وجود خيط بيوغرافي ، فإنني لم أبحث في هذا العمل الطويل ، المؤلف من خمسة أجزاء ، إلا عن التعبير السعيد أو التعيس الذي يأتي به كل يوم . وصحيح أن هذا الكتاب متسلسل كقصة تتفرق ثم تعود لتتحد ، قصة توالي أحداث حياتي بالذات ووقائع الطبيعة التي تتابع مناداتي بجميع أصواتها التي لا حصر لها .

حيث يولد المطر ، القمر في التيه ، النار القاسية ، صياد الجذور ، وسوناتا نقدية هي ، على التوالي ، عناوين الأجزاء الخمسة التي تؤلف ديوان ذكريات إيسلانغرا .

ويبتدىء الطريق من تيموكو النائبة ، حيث يكتشف الشاعر العزلة الجنوبية ، والمطر ، والغابة .

منذ ذلك الحين
صار حبي خشبياً
وكل ما ألس يصبح غابة .
تختلط علي العيون والأوراق
بعض النساء مع ربيع البندق ،

الرجل مع الشجرة ،
أحب عالم الريح والأوراق ،
ولا أميز بين الشفاه والجذور .

« الرحلة الأولى »

إنه الزمن الذي ما زالت تترأسه ، بالحب ، « زوجة ابيه » .

التي طبخت ، وكوت ، وغسلت ،
التي زرعت ، وسكنت آلام الحمى ،
وعندما انجزت كل شيء ،
وأصبحتُ أنا

قادر على الوقوف بقدمين ثابتتين ،
مضت ، وقد أدت واجبها ، مظلمة ،
إلى التابوت الصغير
حيث أصبحت بطالة للمرة الأولى
تحت أمطار تيموكو القاسية .

وهو زمن عامل السكة الحديد القاسي ريس ، الذي حاول عبثاً
ابعاد ابنه عن الشعر .

والذي المسكين القاسي
كان هناك ، في محور الحياة ،
في الصداقة الرجولية ، في الكأس المترعة .
حياته كانت نضالاً سريعاً
وما بين استيقاظه المبكر وبين دروبه ،

ما بين وصوله ليخرج من جديد راكضاً ،
صعد السائق خوسيه دل كارمن رئيس
في يوم ماطر أكثر من الأيام الأخرى ،
إلى قطار الموت ولم يرجع
حتى اليوم .

إنه زمن المشاعر الغرامية الأولى كذلك ، وهو دون السن الذي
يمكنه من تحقيق تلك الغراميات ولكن لديه الخيال الكافي لتفتيح
« زهرة الرغبة الجائعة والنقية » ؛ زمن زيارة الشعر الأولى
(« تدرجت مع النجوم ، / وأفلت قلبي في الريح . ») ثم يأتي بعد
ذلك النمو ، ومعه يأتي القلق ، والبحث عن هوية ربما هي حينئذ
لتلك الهوية الأخرى التي احزها دون أن يعي ذلك .

وفجأة ظهر في وجهي
وجه غريب
وكننت أيضاً أنا نفسي :
كنت أنا الذي أكبر ،
كنت أنت الذي تكبر ،
كان الجميع ،
وتغيرنا
ولم نعرف أبداً من كنا .
أحياناً نتذكر
ذاك الذي عاش فينا
فنطلب منه شيئاً ، ربما نطلب أن يتذكرنا ،

أو أن يعرف على الأقل بأننا كنا هو ،
وأنا نتكلم بلسانه ،
ولكنه ينظر إلينا من خلال الساعات المستهلكة
ولا يتعرف علينا .

« الطفل الضائع »

وتستمر الذكريات ، بلا كلل ، عبر رمال الذاكرة : اكتشاف
سنتياغو والمغامرة العاطفية الأليمة في شارع ماروري ، والحنين إلى
« تيروسا » المهجورة في تيموكو ، والميل الشغوف إلى « روساورا »
التي يلقاها في العاصمة ، والاصدقاء في عربة البوهيمية (« ما بين
زجاجات حمراء تفرقع / وهي تسكب ياقوتها أحياناً ، / لتستل
سيوفاً وهمية ، / تدور مناقشات عن الجرأة العقيمة . ») ؛ والافتتان
بالشرق المداري ، مع أنه كان دائماً يشعر بالغربة هناك (« وصلت
غريباً أكثر من أسود البوما / ومضيت دون أن أتعرف على أحد /
لأن ضوء اللجنة القذالي ، ربما ، / قد شوش عظامي . ») ، ورؤيا
باريس الحريفة ، في مروره العاجل في أوروبا للمرة الأولى عام
١٩٢٧ .

كانت ما تزال بقايا تانغو على الأرض ،
ومشابك كنيسة كولومبية ،
مناظير وأسنان يابانية ،
بندورة اروغوايية ،
وجثة نحيلة لتشيلي ما ،
كله كان سيُكنس ،

وسُيُغسل في غسالة عظيمة ،
كله سينتهي إلى الأبد :
رماداً لذيداً للغرقى
المتمايلين بطريقة غير مفهومة
في النسيان الطبيعي لنهر السين .

« باريس ١٩٢٧ »

وقبل أن يتابع رحلته ، يتوقف الشاعر ليجري على نفسه الفحص
الأول من فحوص الضمير التي يتضمنها الكتاب ، ملتحمة بالسيرة
والتاريخ .

يتملكني الخوف أحياناً
من المسير بجانب النهر الهائج ،
من النظر إلى البراكين
التي عرفتها دائماً وعرفتني :
ربما في الأعلى ، أو في الأسفل ،
ربما الماء ، أو النار ، تتفحصني الآن :
وتفكر بأني لا أقول الحقيقة ،
وبأنني اجنبي .

« الرسائل الضائعة »

لكنه يعود ليمسك بخيط من « ارياندا » ليروي من جديد ،
وبصورة نهائية ، قصة الحرب الاسبانية ، وضياح المدينة التي احبها
(« احببت مدريد لحاراتها ، لشوارعها التي تسقط إلى كاستيا / مثل
انهار صغيرة من عيون سوداء ») ، والعودة إلى تشيلي ، وتجربته

السياسية كعضو في برلمان وطنه . وفي معترضة جديدة ، يتوقف الشاعر عن السرد : يفكر . يفكر بالبحر ، بالثلج ، بالأرق ، بوعيه ، بالشتاء (« لقد انتظرت هذا الشتاء كما لم ينتظر أي شتاء آخر / رجال ، قبلي ») ، بالغابة ، بالليل ، بالجبال : ويفهم أن « الحياة فرض واجب » . فيفتتح عندئذ السوناتا النقدية ، المؤلفة من تسع عشرة قصيدة أخيرة هي تصفية دقيقة لحساباته مع نفسه . في بدايتها تقريباً ، يكتب بجدية ونضوج :

ستشرق بلا شك

وبلا شك

سيتبدل النهار ،

ستدور العجلة ،

وستتحول النار .

لم يعد ثمة شيء

مما أشرق ،

الأرض احترقت

عنية بعد عنية ،

والقلب بقي بلا دماء ،

والربيع بلا أوراق .

« إنها تشرق »

لا يمكن للشاعر أن ينسى شيئاً في هذه الرحلة إلى اعماقه ، فهو يكرس قصيدة طويلة (« الحدث ») ليتكلم عن الازمة التي اثارها خيبة أمله بستانالين ، بعدما كشفه المؤتمر العشرون . وبعد تصفية

الحسابات حول هذا الموضوع ، يستعيد البساطة السعيدة التي
أظهرها في كتب الاغنيات .

إن بعض الابيات من قصيدة « ليس ثمة ضوء نقي » - وهي
قصيدة موجودة في منتصف الذكريات تقريباً - ستكون أفضل من أي
تعليق حول توازنات ومعارف هذا الكتاب ، الذي يبدو وكأن نيرودا
قد جمع فيه تعددية اصواته ، في انطولوجية شاملة .

الوقت متأخر ، متأخر . واستمر .

استمر بإيراد مثال بعد آخر ،

دون أن اعرف ما هو المغزى ،

فلكثرة الحيوانات التي عشتها اصبحت ساهياً

وأنا ، في الوقت ذاته ، ذلك الرجل الذي كتبه .

ربما هذه هي النهاية ، هذه هي الحقيقة الغامضة .

حديقة الشتاء

١٩٦٥ - ١٩٧٣

« ولم أجد الوقت ولا الحبر الكافي لأكتب كل شيء »

ما تزال أمام نيرودا « دزينة » من الكتب التي سينشرها قبل موته ، بالإضافة إلى تأليف وعرض عمله المسرحي الوحيد : تألق وموت خواكين موريتا ، وفيه يروي مغامرات ونكبات قاطع طريق تشيلي في كاليفورنيا خلال حمى الذهب ، والمسرحية توسيع درامي لاحدى قصائد ديوان أغنية البحارة .

في ١٩٦٦ يرى النور ديوان فن العصافير ، المؤلف من خمسين قصيدة مكتوبة بأسلوب بارع يتجاوز الاتقان الفني في بعض الاحيان ، واعتقد أن نيرودا قد استمتع كثيراً بكتابتها . ويمكن الخاق هذا المرجع في علم الطيور ليصبح الديوان السادس في مجموعة دواوين الاغنيات : فبعد المعارف والتقنيات التي توصل إليها ، أصبح بإمكان نيرودا أن يكرس كتاباً كاملاً لأي مظهر من مظاهر الواقع

الذي يشغل اهتمامه إلى حد كاف ، دون أن يخاطر بالسقوط في التكرار .

بيت على الرمال هي مجموعة من تسع وثلاثين مقطوعة - غالبيتها من النثر - مزينة بصور فوتوغرافية للمصور سيرغيو لاراين ، نشرته في السنة نفسها دار النشر البرشلونية « لومين » (كبالون اختبار حول امكانية اعادة كلمة الشاعر الممنوعة في اسبانيا) .

أيادي النهار ، الصادر عام ١٩٦٨ ، هو كتاب آخر حول موضوع واحد ، وموضوعه الصنعة اليدوية .

بامكان القصيدة أن تقول الكثير ، دفاعاً عن التيار الانثروبولوجي الذي يدعم تحديد الانسان العامل لتمييز ما هو انساني ، في وجه التيار الأكثر بؤساً وتزمتاً الذي يتوج الانسان العارف . فانسانيّ هو الحيوان القادر على صنع أية اداة . وانطلاقاً من هنا ، يبدأ نيرودا في القصيدة الأولى من القصائد الثماني والستين التي تؤلف الكتاب ، بنذب تقصيره اليدوي .

أقر بأنني مذنب لاني لم أصنع مكنسة ،

بهاتين اليدين اللتين منحتا لي ،

لماذا لم أصنع مكنسة ؟

لماذا منحت يديني ؟

وعلى امتداد عدة قصائد يتابع الشاعر الاشارة إلى يديه العاجزتين اللتين لم تصنعا معدناً ولم تحرثا أرضاً ، ويطري على الايدي الأخرى ؛ التي تبني الوقائع الملموسة . إلى أن يكتشف الاستمرار

السفلي للايقاع ، الموضوع تحت الارضي للكتاب ، والذي لغرابته
يصعب الامساك به في القراءة الأولى : فالشاعر متعب للمرة الأولى
والوحيدة في عمله ، ثمة اجهاد ، وخيبة أمل ، وشباك عنكبوت
تفرض نفسها ما بين نشيده ومشيعته .

لن ترجع تلك الأيام الفسيحة
التي دعمت في مرورها ، السعادة .
حفيف خمائر

كنبيذ قاتم في الاقبية
كان عمرنا . وداعاً ،
وداعاً ، تنزلق

وداعات كثيرة كالحمائم
في السماء ، نحو الجنوب ، نحو الصمت .

إن رتبة الوجود ، والغنغرينا التي تتسلق الحياة نحو الموت ،
تتسلل كلها عبر هذه الصفحات الخريفية . لكن نيرودا يشفى من
الهبوط ، فينفض عنه الكآبة ويرجع إلى طريقه في ديوان نهاية العالم ،
وهو ارتداد جاء في وقته المناسب وتباهى فيه أيضاً بمهارته الشعرية
باستخدام المقطعات التساعية الصعبة . ومع ذلك ، فإن عنصراً قد
اختفى من شعر نيرودا اعتباراً من أيادي النهار وهذا الغياب واضح
في نهاية العالم وفي مازال ، وهما الديوانان اللذان صدرا عام
١٩٦٩ ، وهذا العنصر هو : الانسراح . إن هذا الاختفاء ، من
وجهة نظري ، ليس نقيصة ، وإنما على العكس تماماً : ففي الخامسة
والستين من عمره ، كان نيرودا قد أصبح عالماً إلى درجة عدم

التمسك بالانشراف ؛ فثقته الايدولوجية التطورية استمرت على رسوخها ، ولكنه شخصياً كان قد ادار ظهره لكل شيء : فهو يعرف بأنه لن يحدث له أي جديد ، ويتأمل أعماله على أنها مرج فسيح ، وهي كذلك فعلاً . وربما من هذا المنطلق يجب ملاحظة الدورة اللامفهومة بالنسبة للكثيرين التي يتنفس منها نيرودا في كتابه التالي : السيف المتقد ، الصادر عام ١٩٧١ .

تروي هذه الاسطورة قصة ناج من التدمير العظيم الذي اجهز على الانسانية . وهو مؤسس مملكة قائمة في عزلات خليج ماغيانيس الفسيحة ، ويقرر أن يكون القاطن الأخير لهذا العالم ، إلى أن تظهر في اراضي مملكته فتاة هاربة من مدينة القياصرة ، أوربياً .

إن القدر الذي حملها إلى الخطيئة يرفع ضدّها السيف المتقد القديم لأدم الجديد المتوحش والمتوحد ، وعندما يتقد غضب الاله ويموت ، في المشهد المضاء بالبركان العظيم ، يعي هذان الكائنات الأدميان ألوهيتهما .

ومن خلال تحولات رودو وروزى - الرجل والمرأة الأدميين اللذين ابتدعهما - يختتم نيرودا بشكل متماسك ، في أواخر حياته ، التعادل الغرامي في أعماله . فالغزل الفاحش في دواوينه الأولى ، يتحول فيما بعد إلى حب كوني متضامن ، وتكوين جديد سعيد اعتباراً من الزواج الأخير للشاعر (المحب والمحبيب تماماً) ، وتصبح مشاعره الآن كونية وصوفية («موت الاله » لا ينفي ذلك وإنما يؤكد) .

ديوان نيرودا التالي هو (احجار السماء ، ١٩٧١) ، يبلغ عنه من

عنوانه .

في مرةٍ سنغدو راكضين
عبر نار البركان أو غنب النهر
أو دعوة النداءة المخلصة
أو المسيرة الساكنة في الثلج
أو الغبار المنهار في أقاليم الصحراء ،
غبار المعادن ،
أو فيها هو أبعد من ذلك ، في غبار القطب ، موطن الحجر ،
الياقوت الأزرق المتجمد ،
الجنوبي ،
في هذه البقعة أو ذاك المرفأ ، هذه الولادة أو الموت سنغدو
حجراً ، ليلاً بلا أعلام ،
حجاً بلا حراك ، وميضاً بلا نهاية ،
نور الأبدية ، النار الدفينة ،
الكبرياء المحكومة بطاقتها ،
النجم الوحيد الذي نمتلك .

ويلى ذلك ديوان جغرافية باطلة ١٩٧٢ ، ودعوة لإبادة
النيكسونية والاشادة بالثورة التشيلية ، وهو آخر كتاب نشره
الشاعر ، عام ١٩٧٣ ، قبل موته بشهور قليلة . وقد صنفه نيرودا
نفسه على أنه كتاب هجائي ، وقال عنه : (« اني ألتجىء إلى
استخدام أقدم اسلحة الشعر ، إلى النشيد والهجاء ، اللذين
استخدمهما الشعراء الكلاسيكيون والرومانسيون من أجل القضاء

على العدو »). ولا نستطيع أن نضيف شيئاً آخر حول هذا الديوان ، سوى أن مؤلفه أدرك غرضه بشكل متقن بالمقارنة مع هذا الموضوع في الشعر ، فالكتاب يزخر بالقوافي البسيطة والأوزان الشعبية القابلة للحفظ والتكرار كشعارات .

لقد تركت ، متعمداً ، إلى نهاية هذا الفصل الحديث حول أغنية البحارة ، وهو برأبي أهم ديوان للشاعر منذ ذكريات ايسلانغرا وحتى موته .

لقد كتبت ديواناً عظيماً ، واسميته أغنية البحارة ، إنه اشبه بالترنيمة ، وقد التقطه هنا وهناك من المواد ، التي تحت يدي ، وهذه المواد كانت في بعض الاحيان مياهاً أو قمحاً ، وربما بسيطة في احيان أخرى ، محاجر أو جروف صخرية قاسية ودقيقة ، والبحر دائماً بصمته ورعوده ، أو ابد امتلكها هنا قريباً من نافذتي وفيما حول ورقتي ، وفي هذا الكتاب ثمة قصائد لا تغنى فحسب ، وإنما تروى أيضاً ، لأن الزمان الغابر كان هكذا ، فالشعر كان يغنى ويروى ، وأنا كذلك ، غابر ، وليس لي ثمة وسيلة . . .

إن نيرودا لم « يغنِ ويرو » أبداً بكل هذا التناسق الموسيقي كما فعل في هذا الديوان البارع في سنوات نضوجه . فهو يستخدم اصعب الاوزان الشعرية وأفخمها متنقلاً من وزن إلى آخر ليغطي مختلف نبراته الصوتية ، مما يسمح له بمصارعة حقيقية فاخرة مع الثور الشعري .

وتجتمع في اغنية البحارة أيضاً ، وبشكل موضوعي ، بعض الأمور التي توصل إليها نيرودا في عدة جبهات : الاعتراف بنسبه الشعري (في قصيدة التكريم البديعة لروبين داريو ، والذي يطلق عليه ببساطة اسم « ر. د . ») ، وميوله الغنائية (خصوصاً في المقاطع الحوارية ما بين موريتا وحبيبته) ، وجانب الشاهد فيه (في الوصف الجميل جداً للوطن) ، وتفسيره للتاريخ (في تكريمه للورد كوتشران وارتيجاس) . ونجد في اغنية البحارة أيضاً وهذا المظهر يغطي الكتاب كله ويشكل قوامه - اللقاء بالحب كاملاً ؛ الشعور العميق بأنه وصل إلى الميناء .

حبيبي ،

أحبك وتحبيني واحبك :

الأيام قصيرة ، والشهور ، والمطر والقطارات :

البيوت عالية ، والأشجار ، ونحن أكثر علواً :

يقترّب الزبد على الرمال ليقبلك :

تهاجر الطيور من الارخبيلات

وتنمو في قلبي جذورك القممحية .

لا شك يا حبيبي أن عاصفة ايلول

أهوت بحديدها الصدى على رأسك

وعندما رأيتك وسط الريح الشوكية

سائرة بلا دفاع ،

أمسكت بقيثارتك التي من العنبر ، وجلست إلى جانبك ،

شاعراً أنني عاجز عن الغناء بدون ثغرك ،

وانني ساموت إذا لم تكوني تنظري إليّ باكية تحت المطر .
ويمكننا مضاعفة الامثلة والشواهد إلى حد استنساخ الكتاب
بأسره . ولكنني أريد أن انهي بإيراد مقطع هو ، بالنسبة لي ، أجمل
مثال بين الأمثلة الكثيرة حول « تصفية الحسابات » في كتب نيرودا
الأخيرة : وهذا المقطع هو نهاية قصيدة بعنوان « انني بعيد » في ديوان
اغنية البحارة .

لقد استبدلت الشمس والفرن الشعري مرات عديدة
حتى انني كنت ، ما أزال ، انفع كمثال للكآبة
عندما صنفوني في الفهارس الجديدة كمتفائل ،
وما كادوا يعلنون أنني غامض كغم الذئب أو الكلب
حتى شكوا إلى الشرطة بساطة غنائي
وأكثر من واحد عثر على مهنة وخرج ليقاقل قدري
بالتشيلية ، بالفرنسية ، بالانكليزية ، بالسّم ، بالنباح ،
بالوشوشة .

ها هنا أحمل الضوء وأمده إلى الرفيق السيّء .
ضوء الشمس المفاجيء في الماء مولداً حائماً ، واغني .
سيكون الوقت متأخراً ، فالسفينة ستدخل في الغياهب ،
وأغني .

وسيفتح الليل مخازنه فأنام مغطى بنجوم . وأغني .
وسيأتي الغد بوردة مستديرة في فمه . وأنا أغني .
وأنا أغني . أنا أغني . أغني . أغني .

كتاب التساؤلات

١٩٧٤ - ١٩٧٨

« إذا كنت لم ادع احداً هادئاً
فلن يدعوني هادئاً ،
ليس ذلك مهماً ، وسترى :
سيطبعون حتى جواربي » .

توفي بابلو نيرودا ليلة ٢٣ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣ . وفي شهر شباط (فبراير) من هذا العام ، تزوره كاتبة سيرته مارغريتا اغيري للمرة قبل الأخيرة ، وتكتب : في دفاتر لها أغلفة خضراء ، وخطوطة بحبر أخضر أيضاً ، كان يكتب القصائد التي ستؤلف عدة كتب مختلفة . ومع أن بابلو كان يستاء من العبث بأصول كتبه وتقليبها ، فإنني لم استطع مقاومة الاغراء وقد سجلت عناوين الكتب التي ما تزال مشاريع حتى الآن ، وهي : عيوب مختارة وقصائد اخرى ، كتاب التساؤلات ، القلب الاصفر ، كتاب الغوثمانيون ، والبحر والنواقيس .

وفي حزيران (يونيو) من السنة نفسها - قبل موت الشاعر بثلاثة

شهور - تعود مارغريتا اغيري إلى ايسلانغرا ، حيث تلقتني نيرودا
لأخر مرة . وتؤكد : بالاضافة إلى مجموعة الكتب التي اشترت
إليها ، كتب بابلو في باريس كتاب مذكرات نثري ، وقد اخبرني
بأن هذا الكتاب هو توسيع للمذكرات التي نشرها خلال عام ١٩٦٢
في مجلة اوكروتيرو . ولم يسمح نيرودا مطلقاً بنشر تلك المذكرات في
اعماله الكاملة لأنه كان يفكر دائماً بتوسيعها . وكتاب المذكرات لم
يتنه بعد ، ويقوم سكرتيره هوميرو حالياً بتبيض الصفحات
الثلاثمائة المخطوطة ، بانتظار أن يعود الشاعر إلى متابعة العمل
فيه .

ولا بد أن نضيف أن نيرودا قد انجز كتابه دعوة لآبادة
النيكسونية - الذي نُشر في شباط (فبراير) من هذا العام - ، وإنه
كان مريضاً - فقد وجدته اغيري يشكو من آلام الروماتيزم - ، وإن
همومه السياسية كانت تتعاظم بسبب المأساة التشيلية الوشيكة - وقد
حدث وقوع المأساة بكل وضوح في البيان الذي اصدره في اواسط
عام ١٩٧٣ - . وأكبر الاحتمالات هو أنه لم يَل على هوميرو ارثي
أية صفحة جديدة من مذكراته ، وأنه لم يصف شيئاً ، أو الشيء
القليل فقط ، إلى مسودات كتبه التي لم تكن مكتملة .

وعلى الرغم من الأمور المشار إليها فإن عام ١٩٧٤ قد تحول إلى
عام احتفال لا نظير له بنيرودا . فقد ظهرت أربعة من الكتب
الخمسة التي « تجسست عليها » مارغريتا اغيري - كتاب الغوثمانيون
اختفى في هذه الضجة - ، كما ظهرت ثلاثة كتب أخرى لم يذكر أي
منها في أية مناسبة سابقة : الوردة المفصولة ، و٢٠٠٠ ، وورثيه . اما

بالنسبة للمذكرات ، فإن الصفحات الثلاثمائة التي نقلها هومبرو ارثي على الآلة الكاتبة ، تتحول إلى أكثر من خمسمائة صفحة في الكتاب الذي أصدرته دار النشر Seix y Barral تحت عنوان اعترف بأني قد عشت . وفي عام ١٩٧٨ تنشر دار النشر نفسها أخيراً (أخيراً ؟) كتاب للولادة وُلِدْتُ ، وهو مؤلف من خمسمائة صفحة أخرى من النثر المتنوع ، مستخرجة من عدة أماكن ، ومصنفة في ثمانية دفاتر لإعطائها بعض الترتيب .

ليس لدي أي موقف ضد تنفيذ الوصايا الادبية ، وحتى عندما يتعارض تنفيذ الوصية مع رغبات الميت (وقضية ماكس برود المتعلقة بوصية فرانز كافكا هي أشهر مثال لما اعنيه) : فأعمال أي مبدع تصبح ملكاً للعالم بأسره أكثر مما هي ملك خاص به ، ويصبح المبرر أكبر عندما ينهي هو دوره الأرضي .

وما أقصده في قضية نيرودا ، هو الطريقة التي نشرت بها اعماله . فبين يدي الآن ثلاثة من الكتب التي نشرت بعد موته ، لا يتعدى أي منها كونه مسودة . والأمر متعلق طبعاً بمسودات لنيرودا ، ولا بد أن نشرها مهم جداً إضافة لكونه وفاء لأعمال الشاعر . ولكن حداً أدنى من الجدية كان يقضي بجمعها كلها في مجلد واحد ، ورافقها بدراسة تمهيدية تساعد على وضعها في موقعها الصحيح بين اعمال الشاعر ، وتقديم يميزها عن مؤلفات الشاعر المنعزة في حياته . أما فيما يتعلق بكتاب أشهد اني قد عشت فالقضية أشد خطورة ، فعملية التدخل التي مورست لترتيب الكتاب بالتسلسل الذي لم يكن عليه قطعاً ، لا يلحق الضرر بنيرودا كراي فحسب ، وإنما يكشف أيضاً

عن سوء المصادقية الثقافية . ان عدم وجود مقدمة ، أو تفسير مهور بتوقيع يوضح الأسلوب المستخدم في تنسيق الكتاب ، هو قضية اشد خطورة من دواوين الشعر (وما ذكره منسقو الكتاب في بضعة سطور على الغلاف الأخير للمذكرات ، يشكل اشارة للمتخصصين ولكنه ليس بذي فائدة للجمهور بشكل عام).

أقول هذا وأنا اتمنى لو أن ما نشر بعد موت نيرودا قد ضمّن كله في السفر الذي ظهر مؤخراً بعنوان للولادة وُلدتُ ، أو أن يجري نشره في المستقبل بتدقيق أشد . وأخيراً ، فإن هذه المؤلفات لا تضيف جديداً إلى اعمال الشاعر ، وإذا كان بالامكان تبرير نشرها على أنها مساعدة للباحثين والدارسين في مهمتهم ، فإن ما يبدو منطقياً هو المطالبة بتأمين تغطية لهذه الأعمال من جهاز علمي مطلع .

خاتمة

« لست أدري ما إذا كان تفاخراً القول ،
وأنا في هذه السن ، بأنني لا انفي استمراري
بكنز جميع الأشياء التي رأيتهما أو احببتها ،
كل ما شعرت به ، وعشته ، وناضلت من أجله ،
لأتابع كتابة القصيدة الطويلة التي لم
انها ، لأن الكلمة الأخيرة في اللحظة
الأخيرة من حياتي هي التي ستنهيها » .

شاعر التنوع في السياق الواحد ؛ والوفاء لمفهوم شعري تطوري ،
ومستبدل الاستراتيجية مرة بعد مرة . هذا هو بابلو نيرودا الذي لم
يعرف عصرنا مثيل له . لقد احتاجت ميوله التاريخية لقدراته
الشعرية الهائلة كي لا تُسحق تحت ثقل خمسين سنة من العمل
الشعري المتواصل ، وأكثر من خمسين كتاباً . إن من ينتقدون هذا
الأكثر لا يفهمون بأنه ليس حجر الأساس في اعماله فحسب ، وإنما
هو المبرر الضروري والكافي لظاهرته . فمثل هوميروس ، ومثل
وايتمان ، ومثل داريو ، لم يكن بمقدور بابلو نيرودا أن يغني بصوت

خافت ولا أن يتوقف ليلتقط انفاسه . فعندما يجتمع لشاعرية - كما هو حاله - الاهتمام المتيقظ للمؤرخ والعزيمة التأسيسية للكلمة ، فإن صاحبها محكوم لا محال بتجاوز حدود المعقول ، ليصبح متعصباً ، وعاملاً لا يعرف الكلل ، تحت طائلة المغالاة والتكرار : إن أي تردد سيقبله ؛ وأي نسيان يكون كافياً لالغاء مشروع عمله المتجاوز للحدود ، وهو لا يسعى إلا لأمر واحد : إعادة رسم الكون .

من السهل العثور على اسماء ميتة في هذا الاقيانوس الفسيح ؛ لكن الصعب هو العثور على مواز لحجم اصابعه ، على التماسك والنظافة التي جعل بها نيرودا من هدفه الشاق أمراً جديراً بالاحترام .

إذا كان الشعر ، من حيث المبدأ ، هورهان خاسر مسبقاً ؛ وإذا كان كل شاعر عظيم يعرف - أو يتحدث - بأن الواقع ليس شاعرياً ، وإن كلمته تخدش السرد دائماً دون التوصل إلى الغائه ، فإن شكلاً من اشكال الثقة اليائسة لا بد أن يحرك هذا الانسان ليجعله يستهلك حياته في هذا الحصار . واطن أن هذه الثقة ، في حالة نيرودا ، هي حبه الانساني ، واستبعاده لكل ما هو ألوهي ؛ وتحديد الصائب لمستقبل الانسان المشرق ، وصعوده المستمر دون توقف عبر التاريخ ، بدءاً من القرد المتمايل وحتى الملاك الأحمر الذي كان ينتظره كنهاية لمصيره .

وهذه ، بلا شك ، هي نقطة الضعف الكبرى في عمله - من المعروف أن الاناجيل تتعارض وتختصم مع الذكاء - ، وهو سبب سقوطها في السداجة ، والتبسيط ، والدوغمائية . ولكن لا بد من

البحث هنا كذلك عن قوام عظمتها : إذ لا يمكن بناء كتدراية انطلافاً من الارتياح ، والنبوة غير ممكنة دون ايمان ، كما لم يكن ممكناً فتح اميركا دون التعصب .

ثمة يقين مطلق تلوح في رؤيته منتصباً في آلاف الصفحات التي خطها نيرودا : لقد كان قادراً على تقصيد اعماله ، وتحقيقها بهذا التماسك الكبير ، لأنه آمن بالبشر واجبر نفسه على العمل لترك لهم انجياً يتضمن هذه الثقة . وبالإمكان مشاركته أو عدم مشاركته في رؤيته للواقع وللشعر ، ولكن نيرودا حقق المهمة العملاقة بمنهجة كلا الامرين لصالح الانسان .

نشرت مجلة « ترينفو » الاسبانية ، في عددها الصادر بتاريخ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، رواية شاهد عيان هو « بلينيو ابرليو ميندوثا » لتفاصيل الساعات والدقائق والثواني التي اعقبت مصرع الشاعر بابلو نيرودا . ونورد فيما يلي ترجمة لها ، لتكون بمثابة خاتمة لهذا الكتاب .

المترجم

في ذلك اليوم ، وعندما كنا نستعد لزيارته في المستشفى تلقينا الخبر : لقد مات نيرودا ! .

كان الجو بارداً ، وفي الهواء ما زال يطفو ضباب صباحي ، عندما وصلنا إلى بيته في ستيياغو في شارع ماركيز دي لا بلاتا . شارع صغير ، منسي . إنه الملجأ المناسب لشاعر ، حيث تملؤه أشجار داكنة اللون ، تعطي انطباعاً خريفيّاً في الربيع الجنوبي . وينتهي شارع ماركيز دي لا بلاتا بجدار رسمت عليه لوحة دعائية بألوان حيوية ، رسمها اناس من الوحدة الشعبية . إنها اللوحة الدعائية الوحيدة لليسار التي لم تمح في ستيياغو .

وهناك ، مقابل بيت الشاعر ، ثمة لافتة تقول : (الشبيبة تحميك يا نيرودا) .

- دون بابلو موجود ؟ -

كان السؤال سخيفاً ، ولكن المرأة التي فتحت الباب تلتقته بصورة طبيعية . وقالت :

- إنه فوق .

بهو الدخول مغمور بالماء ، وكذلك الطابق الأول . ماء عكر يتدفق من مكان ما .

في الجانب الآخر من البهو ، وفي مستوى أكثر ارتفاعاً توجد حديقة رطبة تملؤها النفايات : أوراق ، كتب محروقة ، زجاج . كثير من الزجاج يصير تحت الأحذية . امرأتان تقلبان النفايات بحذر . التفتت احدها إلينا ، وقالت ببساطة :

- لقد حطموها .

انحنينا للتلقط صورة ملوثة بالطين ، إنها قديمة جداً . ثلاثة رجال وامرأة يلبسون زي الثلاثينات ، ويجلسون وسط الثلوج . يبدوون سعداء أمام المصور .

قالت المرأة :

- هذا الرماد هو صور ورسائل دون بابلو .

قصاصات ورق مكتوبة بخط صغير منمق ، متآكلة الاطراف بفعل النار . تبدو متفرقة هنا وهناك .

قالت المرأة :

- لم ينتظروا حتى يموت . لقد حضروا منذ يومين .

- أين تضعونه ؟

- هناك .

أشارت إلى غرفة صغيرة كبيت الحمام ، ترتفع في اعلى الحديقة ، ويُصعد إليها بسلم مائل .

عندما فتحنا الباب وجدنا انفسنا أمام نعش في غرفة مثلجة ، بلا اضاءه ، حيث كان ستة أشخاص فقط .

ذاك النعش الرمادي مكون فوق قطعة موبيليا دون أبهة ، دون أكاليل ، دون شموع ، ومزين بزهرتين بيضاوين فقط ، وكأنهما مقطوفتان على عجل مما يعطي شعوراً بالوحدة .

تحت لوح من الزجاج كان وجه نيرودا المسجى فوق قطعة قماش من الساتان . إنه يبدو ناقصاً ، غير واقعي . لم يكن فيه بريق الحياة . ولكن قميصه الذي يلبسه كان مفتوحاً عند عنقه مما يوحي بالتفكير بأيام الأحاد الهادئة في ايسلانغرا ، أو في صبيحات ربيعية في باريس ، المدينة التي أحبها نيرودا وفارقها إلى الأبد منذ عام .

زوجة نيرودا كانت تجلس إلى جانب النعش وحيدة . « ماتيلدي اوروتيا » التي عرفناها قبل ستين في بيت غارسيا ماركيز في برشلونة ، في ذلك الصيف عندما لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق على حياة الشاعر أو على تشيلي . المرأة الشقراء التي كانت تتكلم بحماس بينما كانت زجاجات النبيذ الأبيض في الثلاجة تنتظر وصول نيرودا ، تجلس الآن ساكنة ودون أن تبكي على قدمي التابوت ، في غرفة مزروعة بالنفايات . البيت كله كان مفتشاً ومسلوباً .

عندما تمكنا من قطع الماء المتدفق ، كان الطابق السفلي قد

فاض . ليس ثمة ضوء كهربائي ، النوافذ مهشمة ، ومصباح الكهرباء والتحف محطمة أيضاً إلى نطف صغيرة ، والكتب محروقة ، واللوحات مخفية ، لوحات بدائية كان نيرودا قد جمعها طوال حياته .

في تلك الليلة ، وفي بيت غارق في الظلام ، في صمت المدينة الواجمة بسبب منع التجول ، ومع لفحات البرد الجبلية التي تتسلل من النوافذ المهشمة ، كان على الأرملة أن تسهر إلى جوار جثة الشاعر .

الآن في وضوح النهار ، لا تزال المدينة تعيش هدوءاً متوتراً . سيارات مصفحة ممتلئة بالجنود تتنقل ببطء في الشوارع . وبسبب هذا الوضع تجرأ على الحضور عدد قليل فقط من اصدقاء نيرودا ومعظمهم من مناضلي الوحدة الشعبية .

كانت هناك لاورا ، شقيقته ، وبعض الاقارب وهم يتكلمون بصوت خافت في احد الاركان .

كان نور الصباح قد ملأ الكون عندما بدأ الصحفيون بالوصول مجهزين بآلات تصوير سينمائية ، كما حضرت بعض الشخصيات الأخرى : رادوميرو توميك ، الزعيم الديمقراطي - المسيحي ، وسفير السويد . سفارة فرنسا بعثت بأكليل عليه بطاقة تعزية تقول : « تؤلنا تشيلي » .

ظهر احدهم وهو يحمل علماً تشيلياً ووضعه فوق النعش .

في تلك اللحظة نهضت ارملة نيرودا عن الكرسي حيث كانت طوال الصباح وخرجت إلى الحديقة. بحثت عن ركن منعزل ، ثم اسندت رأسها على جذع صفصافة ، ويكت بصمت ، بعيداً عن آلات التصوير .

التقينا في الحديقة بكاتب صديق ، طويل القامة ، ذي طبع مرح رغم شعره الأبيض . وكلمته ماتيلدي اورونيا طالبة منه أن ينهي خطوات الدفن . كان يبحث عن سيارة فعرضنا عليه أن ننقله بسيارتنا الصغيرة التي تركناها أمام الباب .

بينما كنا نتقدم نحو وسط المدينة في شوارع رمادية يملؤها البرد ، كان يقص علينا كيف فند فكرة نقل جثة نيرودا إلى المكسيك (الفكرة انطلقت من بعض الاصدقاء هذا الصباح ، وحسب رأيهم ، فهذه طريقة للتعبير عن معارضته ، ورفضه للوضع الحالي . ولكن ماتيلدي لم توافق فمن الممكن أن يسيء الشعب التشيلي فهم هذا) .

فتح يده وأرانا مفتاحاً .

- إن هذا من أجل ضريح بابلو .

الضريح الذي سيدفن فيه جسد الشاعر ملك لاقرباء أحد المشرفين على كرة القدم في تشيلي : كارلوس ديتبوران - مدفن مؤقت ، وفيما بعد سينقل رفاته إلى ايسلانغرا احتراماً لمشية نيرودا .

مقابل مؤسسة الدفن ثمة امرأة تمحو بالماء والصابون جدارية من

رسوم الوحدة الشعبية ، إنها تعمل بنشاط ، وتذلك الجدار مرة بعد أخرى . ولكن اللوحة المتمردة ترفض أن تختفي .

ملاً الموظف الذي جاء لتسجيل الوفاة الاستثمارات بتدقيق بيروقراطي :

- اسم الميت ؟

- بابلو نيرودا .

- اسم الوالدين ؟

- خوسيه دل كارمن ريس وروسا باسو ألتو .

... الخ .

بعد فحص دقيق ، لم يكن كل شيء نظامياً . ينقص تقرير يبين سبب وفاة الشاعر ووثيقة الوفاة . (سنحصل عليها فيما بعد : توفي نيرودا بسبب سرطان البروستات ، وليس بسكتة قلبية كما قيل) .

وأخيراً ، السؤال النهائي : كم عربية تريدون ؟

صديقنا لم يكن يعرف . ولكن الموظف قال :

- من أجل دون بابلو يجب أن تكون اثنتان . اعتقد أنه ستكون اكاليل كثيرة .

فقال صديق نيرودا :

- في الظروف الطبيعية يجب أن تكون أكثر : سبع ، أو عشر عربات . لست ادري . ولكنني اعتقد أن عربية واحدة تكفي في

الظروف الراهنة .

رنة صوته كانت تحمل مرارة ضعيفة . فصديق نيرودا هذا لم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن يخفي في تلك اللحظة أم لا ، وإذا كان سيقتل أم لا . لقد تلقى في تلك الليلة بالهاتف نبأ وفاة الشاعر ، عندما كان يقوم في شقته بعمل رهيب . فقد كان يحرق مكتبته ، التي تغص بالكتب الماركسية ، خوفاً من العواقب . وعندما بزغ الفجر كانت الكتب قد احترقت .

- هل سيخرج أحد في الجنازة غداً ؟
- من الصعب معرفة ذلك في وضع كهذا .

كان هناك حشد أكثر من المتوقع . حوالي ثلاثمائة شخص بما فيهم الصحفيون والمصورون الاوروبيون .

عندما نقل النعش مع العلم التشيلي عبر الحديقة المملوءة بالماء إلى عربة الدفن القابعة أمام الباب ، كانت الشمس تبعث الدفء بصعوبة ، فما زال في الجو شيء ينفث رائحة ولون الشتاء الجنوبي . ولما أراد الموكب بدء مسيرته في جو تلك الأيام المشحونة بالرهبة والخوف ، دوت في الشارع صرخة مجهولة :

- أيها الرفيق بابلو نيرودا .

وردت بعض الاصوات :

- حاضر .

تكررت الصرخة بنفس الارتفاع لمرةٍتين . بعد ذلك قاطع الصوت

المجهول الاصوات الأخرى صارخا :

- الآن وإلى الأبد .

بدأ الموكب سيره من جديد بصمت وببطء شديدين .

المسافة بين بيت نيرودا والمقبرة العامة لم تكن بعيدة : كيلومترين بمجموعها . ولكن الجو الذي تعيشه المدينة ، حيث دوريات مكثفة من الجيش تجوب الشوارع ، جعل المسيرة بطيئة ومشحونة بالتوتر . بعض الناس وقفوا على الابواب والنوافذ ينظرون إلى النعش وهو يمر دون أن يقولوا كلمة .

أمام باب المقبرة المرتفع ذي القنطرة ، رفع النعش عن العربة ووضع فوق منصة متحركة على عجلات . والمجموعة البشرية غدت أكثر تراصاً بتقدمها في ممر المقبرة الضيق . وانطلقت فجأة من حول التابوت دندنات خافتة لأغنية ، بدت وكأنها طنين نحل . وفي مسمع الممر أصبح للاصوات رنة أكثر تصميمياً ، أكثر ثباتاً . . إنهم ينشدون النشيد الاممي .

تُسمع في الخلف ، في الساحة الصغيرة التي تفضي إلى المقبرة ، صفارات السيارات العسكرية ، ويظهر جنود يقفزون من الشاحنات وهم يحملون بنادقهم الرشاشة . ولكن الحشد استمر بالغناء .

واحسنا بصفير هواء جليدي بين أشجار السرو المغطاة بالغبار ، بينما كان الموكب يتقدم .

وأمام ضريح عائلة ديتبوران ران صمت ، بدد قليلاً ازيز آلات

التصوير السينمائية . وبقي نفس الصمت سائداً عندما ألقى ثلاثة
كتاب وامرأة خطبهم بلا مكبر للصوت .

ووقف طالب شاحب يحمل ورقة منتزعة من دفتر مدرسي ،
ترنح بين يديه ، وقرأ قصيدة الوداع لنيرودا ، لقد كتب القصيدة
في ذلك الصباح ، وكانت قصيدة رائعة .

عند ادخال التابوت في موضعه وسط وابل من الأزهار انفجرت
الصرخة لنيرودا من جديد .

وفجأة ، صاح آخر بشكل غير متوقع :

- أيها الرفيق سلفادور الليندي .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يصرخ فيها باسم الليندي في
سنتياغو بعد موته .

واجابت جوقة واسعة :

- حاضر .

بعد ذلك كانت التحية لفيكتور خارا ، مغني تشيلي الذي أعدم
رمياً بالرصاص قبل اسبوع في الاستاد الوطني . اجهشت بالبكاء
زوجته الانكليزية ، الطويلة الشقراء ، التي كانت تقف قرب نعش
نيرودا . فقبل أربعة أيام ، وهي برفقة السفير البريطاني ، تعرفت
على جثة زوجها وسط مائتين من القتلى .

وفجأة ، تحولت جنازة نيرودا إلى تظاهرة سياسية « عمل المعارضة
الشعبي الأول » هكذا كان عنوان الصحيفة اليومية الفرنسية

« ليموند ». الشهيد على كل حال كان قصيراً جداً . لم تكد تغلق الكوة التي تحفظ رفات نيرودا حتى أطبق من جديد صمت من التوتر والحيرة . يستمر سماع صفير السيارات العسكرية في الخارج . بدأ الحشد بالتفرق بسرعة في كل الانحاء .

عندما خرجنا ، وعلى بعد امتار قليلة من المدخل رأينا مجموعة من النساء يلبسن السواد ، ويبكين . لا يبكين نيرودا . لئنهن زوجات قادة نقابيين قتلوا رمياً بالرصاص ، وقد انتهين من التعرف على جثث ازواجهن . يحملن في ايديهن وثائق دفن معطاة من السلطات العسكرية . ويبكين على بعد امتار قليلة من شاحنات الجيش .

الفهرست

مدخل.....	٥
عرض تاريخي.....	٩
كأس الدم (١٩٠٤ - ١٩٢٠).....	٢٦
رامي المقلاع المتحمس (١٩٢١ - ١٩٢٦).....	٣٣
إقامة في الأرض (١٩٢٥ - ١٩٣٥).....	٤٦
اسبانيا في القلب (١٩٣٤ - ١٩٣٩).....	٦١
النشيد الشامل (١٩٣٨ - ١٩٥٠).....	٧٣
ابحارات وعودات (١٩٤٩ - ١٩٦٤).....	٩٥
حديقة الشتاء (١٩٦٥ - ١٩٧٣).....	١١٥
كتاب التساؤلات (١٩٧٤ - ١٩٧٨).....	١٢٣
خاتمة.....	١٢٧

المؤسسة العربية للدراسات والنشر